خطرات نفس

للدكتور منصور فهمى

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

خطرات نفس

للدكتور منصور فهمى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

حبب إلىّ بعض أصدقائى أن أجمع هذه الخطرات كتاباً أنشره . وكنت أمام رغبتهم ، أشعر بشىء من الغبطة كلما تصورت هذه المقالات التى ذهبت أشتاتاً فى أنهر الصحف قد انتظمها سفر واحد وأصبحت أدنى إلى الحفظ عند من يرى انها بالحفظ جديرة .

لكن الغبطة التى كنت أشعر بها لم تكن لتحفز منى عزيمة ماضية لجمع هذه الأقوال ، إذ كنت أحس فى طوايا نفسى ما كان يصرفنى عن الإهتمام بشأنها . ولعل خير ما أطالع به القراء فى هذه المقدمة أن أصدقهم القول فى اظهار ما كان يدعو تارة إلى الرغبة فى نشر مثل هذا الكتاب وتارة أُخرى إلى الرغبة عن ذلك .

كان يدعو إلى نشر هذا الكتاب ان بعض ما فيهِ من الخطرات يرجع إلى ذكريات تتصل بأيام الصبا ، وإن فى جمعه وحفظه ما يضمن لى حفظ صورة لهذه الأيام . ومهما امتد بنا الزمن وانقطع عنا ماضينا فسالف المرء عزيز عليهِ ، ومهما يكن فى ماضينا من احسان أو إساءة ففى رحاب النفس له أهل ، وله فى باحاتها سهل عند ما يطرق أبوابها متنكراً فى زى الذكريات لذَّة كانت أو مؤلمة . وذلك لأن النفوس كما تستطيب اللذة ، يطيب لها أحيانًا طعم الألم .

وقد حسبت فوق ذلك أن لثمرات القلم المتصلة بالعواطف والتأثرات قيمة وخطراً . وذلك لأن هذا الوجود يصل إلى الإنسان عن منفذين : العقل والحساسية . ومن شأن العقل أن يركّب ويحلل ويعلل وينتهى من تحليلاته وتعليلاته لرد الأمور إلى ناموس الضرورة . ومن شأن الحساسية أن تهز النفس هزاً وتحرك ساكنها وترد الأمور إلى ناموس الإنفعال . وليس من شىء فى الحياة إلا وهو متصل بشأن من شئون العقل أو الانفعال . وان أبعد أغوار النفس مما يطلق عليهِ اسم الجبلة أو الفطرة ينتهى إلى

شدة الإحساس بما يميل الناس إليه أو يميلون عنهُ، أو يدهشون من أمره . ومهما تنوعت العبارات التي تدل على الميل أو النفور أو الاندهاش، فآخر ما يرسب في قرارة النفس من معاني هذه الألفاظ : اللذة ، والألم ، والإيمان . وفي هذه الخطرات التي أبقيها على حالها مذ كتبتها[1] يجد القارئ أصداء للذاتي وآلامي وحيرتي التي فيها افصاح عن التسليم ، وأسلوب من العبادة . فهي في مادتها تنم عن أعمق مشاعري ، وفي ثوبها تدل على طاقتي في تحويل روحانية العقل مادة ، ومعانيه أصواتاً .

* * *

أما ما كان يدفعني لإهمالها فقد يكون مرجعه إلى الاكتفاء بأنها وصلت إلى الجمهور عن طريق الصحف . وكذلك حسباني أن بعض الإخوان قد لا يرضيه إلا أن أبرز للناس أثراً يتضمن نتائج التحصيل والتفكير العلمي ، فتتواصل أوشاجه حول رأي

---

(١) لم أغير شيئاً مما كتبت اللهم إلا اعراب لفظ أو تصحيح آخر لشدة احترامي للغة العربية ويرجع الفضل في ذلك لصديقي الأستاذ صادق عنبر الذي تفضل وتولى بالنيابة عني مراجعة المطبعة في أكثر هذه المقالات فله الشكر الجزيل

مطروق أو طريف ، وتلتئم موضوعاته حول معلومات تبوب وترتب . وكنت كلما ذكرت نسبي لأهل العلم والتعليم ، أقول في نفسي لعلى بنشر هذه الخطرات في كتاب أكون قد سلكت غير مسلك من أتصل بخطيرتهم فأستحق بذلك لومهم . وكان في مثل هذا التفكير مدعاة للتأجيل .

على أن مثل هذا الفكر ما لبث أن تولى عني عند ما كنت أتذكر ان في التريث اتماماً للنضوج ، وأن في التعجل قطافاً لفج الثمر ، وأن علم المرء يتزايد على توالى الأيام ، وأما حساسيته وتأثراته فقد تكون عرضة للتناقص . وخير للكاتب أن يقدم الأزيد دون الأنقص فيسارع في إذاعة ما تمليه عليه العواطف في حينه ويؤجل عمل العقل والروية حتى يشتد ويقوى .

واعتماداً على ما تقدم ترجح عندى ألا أهمل هذه الخطرات.. لكن رب قائل يقول ان حفظها وعدم إهمالها قد يتحققان من غير حاجة لابرازها للجمهور ، إذ من الميسور أن أجمع ما ارتضيت جمعه ، وأهيأه ليسهل عليّ مراجعته كلما دعاني الشوق

لمراجعة صور عزيزة من الماضى . على أن ما أغرانى لطبعها وإذاعتها هو يقينى ان الوجود غير ضنين بنفوس تحس كما أحس وتتأثر على نحو ما أتأثر . وقد يروق لأمثال هؤلاء أن يطلعوا على ما دونت كأنه صور لما فى نفوسهم حيال بعض الحوادث والمشاهدات . فلهم ولأصدقائى ولتلاميذى الذين يحبون ما أكتب ولزوجى وولدى وأهلى الذين هم شركاء لى فى الحياة ومن حقهم أن يتبينوا على نحو ما يتبين الشريك كل ما يتصل بفكرى وعواطفى ، لكل هؤلاء أنشر هذه الخطرات .

منصور فهمى

القاهرة فى ١٨ من ابريل سنة ١٩٣٠

ضمير قلق

اليوم لا علماً أكتب ولا منطقاً . إنما هو حديث فتى مهموم في لحظة من تلك اللحظات التي تبعث فيها النفس أعز مكنونها من الشعر والاحساس . حديث فيه تاريخ حال من أحوال نفس بشرية يظفر منه القارئ بجزء صغير من أجزاء تلك الحقيقة الكلية العظمى التي لو استقصيتها لوجدتها مجموعة لتاريخ الكون في جزئياته . وأن أكرم قسم في ذلك التاريخ ما تضمن أحوال النفوس ومنازعها .

قال الفتى :

انك تحسبني يا سيدي من أهل السرور وأنصار الصفاء . يغريك بذلك ثغري الضحوك ، وارتفاع صوتي في محافل الأنس والطرب ، والتماس المجون في كل إشارة وكل عبارة .

على أنك قد نسيت ، أيها العزيز ، تلك الأوقات التي ألبث فيها ذاهلاً عن الناس وأحاديثهم . فتنسدل على وجهي سحابة من الحزن لا تترك لناظر فيه أن يتبين علامة من علائم النشاط

والأمل . ولا تبقى من إشراقه ونضارة الشباب فيه إلا بسمة خاصة أوهم الناس بها انى معهم فيما يقولون وأفكر فيما يرتأون .

إنه ليخجلنى البقاء يا صديقى فى جمع من الجموع وعلىّ مسوح السواد بينما تكون الناس راغبة فى المسرات واقفة عند أبوابها . ولقد أعمل جهدى على صد غارات الحزن المتتابعة على نفسى كما تتلاحق الأمواج المرهوبة على جرف حطيم.. وحينئذ أعمد إلى البعد عن الناس حتى لا يشذ لباسى الأسود من الأسى عن سرابيلهم النضرة من السرور .

كنت أومن بطهارة الحياة ايماناً ، وكنت أحسن الظن بالناس أيما احسان ، لأنى لم أخرج إلى ساحة العيش إلا من عهد، كما علمت ، قريب . وكنت عند عهدى بالشباب تلميذاً مجداً كثيراً ما لابست الكتب وانقطعت للدرس وقليلاً ما لابست الناس ونظرت فى شؤون الحياة . ولقد جعل القضاء لطائفة من الكتاب الخياليين علىّ سلطاناً فكنت أصبو صغيراً للصور الجميلة والخلال الكريمة والأشباح الشريفة التى كانت تخرجها أذهانهم قبل أن أتصل بحقائق الحياة المرة المؤلمة .

خرجت من عالم الكتب إلى عالم الناس وكنت أتوهم أن

الناس يلقوننى لأعمل معهم واكتب تحت أعينهم صحيفة من سفر الحياة الواسع فاملأها برسوم الحق والواجب ، وآثار العمل والأمل ، وأصور فيها صورة الأب الصالح ، والزوج الوفى ، والوطنى الصادق ، والانسان العادل فى نفسه وفى الناس . وكنت أظن أن كلمات الحرية والاخلاص والفضيلة والرحمة والكمال وأمثالها مما وسعه المعجم تسعها معاملات الناس بعضهم لبعض على أننى صدمت صدمة بالغة حين رأيت أن الناس يسيرون على خلاف ما كنت أظن . وان الحياة تكاد تكون جارية لمقادير غير ما كنت أقدر . وان السجايا التى كنت أظنها من صفات البشر انما هى لمخلوقات خيالية تبصرنا ولا نبصرها وترانا ولا نراها . هالنى وأفزعنى أن أرى فى الحياة مسرحاً واسعاً للنفاق والرياء والخداع والأباطيل وأن هذه الأشباح الشنيعة قد صرعت تلك المخلوقات الشريفة التى نسميها الفضائل واستبدت وحدها بميدان الحياة كله . تساءلت أكانت الكتب تخدعنى وتغير صور الأشياء فتجعل ضعفاء الحقيقة هم الأقوياء وأقوياءها هم الضعفاء ؟ ؟ أم هو الوجود لم يبلغ بعد فى تاريخ نشوءه طوراً تنال فيه الفضائل منازلها من الكرامة والاجلال وتسير فى المعاملات كأنها

الكواكب تجرى فى داراتها على سبل ممهدة فتصبح حينذاك القوة والغلبة ميزة للسجايا وحدها . ثم تسآءلت هل فترة الحياة من شأنها أن يظل فيها أشباح خيالية تتخذ وكرها فى رؤوس البشر وتشبه الأملاك فى نورانية أجسامها وتغرى النفوس بالنزعات العالية أم توجد كرام السجايا حقاً عند أفراد أغنياء بأنفسهم عن الناس معززين منعمين بتداعبتها يحسبهم الجهال مهزومين وهم يعيشون كآلهة الأساطير يسخرون من نعيم الناس ولهم من أنفسهم أكبر نعيم . وقلت فى نفسى بعد ذلك كله هل القوىّ فى الحياة الاجتماعية هو من يخضع لنواميسها من الرياء والظلم فيخدع ويظلم ، أم هو الذى يحتقرها فى قوانينها ليعيش تحت راية مبادىء أخرى تنسجها له تصوراته وخيالاته السامية ؟

ان منشأ همى يا سيدى هو ذلك التنازع القائم بين ما تحن اليه نفسى ونزعاتها وبين المبادىء التى يقوم عليها المحيط الذى يضمنى .

أأعيش منفرداً واحداً فى عالم الخيال ، أم أدخل إلى ساحة البشر وأخلع ثوبى الجميل الكريم ؟ !

القاهرة فى ١٦ من يوليه سنة ١٩١٥

مآتمنـــا

مآتمنا تذهب برهبة الموت ووقار الأسى فهى ممقوتة عند الله وهى عار علينا فى مظاهرها .

يزعم أهل النظر والعلم ان السرور أدعى إلى صنوف الحركات وان الحزن أدعى إلى السكينة . وذهب ابن خلدون إلى أن «طبيعة السرور هى انتشار الروح الحيوانى وتفشيه وطبيعة الحزن انقباضه وتكاثفه» !

نعم . صدق فى نتيجة رأيه الامام ، فالفرح والوجد أمران مقدوران على البشر من قديم يغشيان الأفراد والأمم . فأما الأول ، فآيته الحركة وأما الثانى فآيته السكون . وإذا كان الأول يخلع على الوجوه بهجة ونضارة فان الثانى يلقى عليها صنفاً من صنوف الحسن أبلغ معانيه الصبر على احتمال المكروه ، والشجاعة على احتمال الألم .

إذا صح لى الشك فى قول الأمثال السائرة ان الكلام من فضة والسكوت من ذهب فلقد آمنت أن صمت الأسى أفصح من كلامه ، واشارته أوقع فى النفس من عبارته .

ألا أن الموت لايطلب الينا إلا أمراً واحداً ، هو أن نتعظ به فانه أفصح خطيب ونحفظ الوفاء لمن يموت فى الحزن الصادق .
وما مظهر الحزن الصادق إلا غمامة جميلة تعلو الوجه ، ودمعة حارة تروى الوجنات ، وتأوه صامت ينتزع من أعماق الفؤاد .

روى أن النبي (صلعم) أتى ابنه ابرهيم وهو فى حجر أمه يجود بنفسه فأخذه النبي (صلعم) فوضعه فى حجره ثم قال يا ابرهيم « انا لا نغنى عنك من الله شيئاً » ثم ذرفت عيناه ثم قال يا ابرهيم « لولا أنه أمر حق ووعد صدق وان آخرنا سيلحق أولنا لحزنا عليك حزناً هو أشد من هذا وانا بك يا ابرهيم لمحزونون تبكى العين ، ويحزن القلب ، ولا نقول مايسخط الرب »

*
* *

اللهم ارحم قومنا فانهم لا يعلمون كيف يجلون وقار الموت ، ولا ينعمون ببهجة الحياة ! !

القاهرة فى ٣٠ من يوليه سنة ١٩١٥

نظرة فى الطريق

على هذه الطريق التى تقطعها قدماك كل صباح ، ومن هذه المشاهد التى تجرى تحت نظرك كل يوم ، وفى واسع هذه الضوضاء التى يسبح فيها سمعك ، أيها السائر . اتئد وانظر ، واتعظ . فبين ذلك صحف حية منشورة بين يديك فيها ، لو تعلم ، حكم بالغة .

ما أرى فى الطريق وما يجرى فيه كأنه عبارة صارخة تقوم على كلمات شتى !!

وما أكثر مفردات هذه العبارة : فيها العامل المكب على عمله ، والمتعطل الساكن الى كسله ، والمنعم التائه فى نعيمه ، والبائس المصدوم فى بؤسه ، وهذا الطاغى وذاك الباغى . وهذا المسرور وذاك المدحور ، وهـــذا الشاكى وذاك الباكى ، وهذا وذاك ،

كل واحد من مفردات هذه العبارة ، بل كل فرد من هذه الافراد الذين يمرون أمامك إنما هو يمثل معنى من المعانى و « يلعب دوراً » من الأدوار فى مسرح هذا الوجود .

هذا كلمة للعمل ، وذاك للكسل . هذا للشقاء وذاك للنعمة هذا للخديعة ، وذاك للغرور ، وهذا للقوة ، والآخر للضعف وهذا للحق . وهذا للباطل . وهلم جراً .

تلتئم هذه المفردات جميعاً لتركب جملة واحدة بل هيكلاً واحداً معناه : حياتنا الاجتماعية .

*
* *

اذا جاز لأهل البلاغة أن يحكموا على فصاحة الجملة بسلامة الألفاظ وحسن التركيب فقد يجوز لأهل الاجتماع أن يحكموا على رقى الجماعة بما تحمله أفرادها من تلك المعانى المختلفة .

فى الجماعات الوضيعة تربى المفردات السقيمة ذات المعانى الواهية فاذا رأيت الطريق تموج بأفراد هذا يمثل دور الكسل وذاك دور اللئيم ، وهذا دور المنحط ، وذاك دور الخادع . وهذا دور الذليل فقل ان هذه الجملة الاجتماعية عليلة لا ينشرح لها الصدر ولا تجود الا بمعنى الحياة المنحطة .

وإذا رأيت فى بلد ما ان الطريق تموج بأفراد تحمل النشاط قلوبهم والجمال وجوههم ، والبشر محياهم ، والقوة أجسامهم

والنظام أعمالهم ، فقل ان تلك الجملة الناطقة التى يحملها هذا الطريق هى فصيحة بليغة ، تدل على رقى الجماعة

رقى الجماعة هو رقى أفرادها وعظمتها تكون فى تعدد أساليب هذا الرقى تعدداً يظهر فى اختلاف المواهب السليمة للأفراد .

القاهرة فى ٦ من أغسطس سنة ١٩١٥

رغيف الشفـاء

بين الواقع والخيال

فى الحياة ناس ممتعون يحويهم الوجود وهو كاره . يدنون إلى النعيم من طرق يكره الله أن يسير فيها البشر الصالح لأنها مسالك الأدنياء والأشرار ويقول أهل العبادة والتوكل بأن الله لا يطرح البركة فى عيش هؤلاء الناس وصدق السادة المتوكلون .

ان الرجل الذى آتيك بحديثه ، أيها القارئ ، هو شبيهك فى نوعه الحيوانى وأرجو أن تكون أعلا منـه فى انسانيتك وأرقى مطمحا .

عاش هذا الرجل حينا من الدهر بين الناعمين ، يطعم كما يطعمون من ألوان مختلفة ، وينام كما ينامون على لين الفراش ، ويخلع الحرير ويلبس الحرير . وكان يشتغل قليلاً ويظفر من عمله بأجر غير قليل وجاه جزيل وينال من هذا الجاه تحيات وافرات .

ظل على هذا الحال حتى تولاه مس سيء من حياة النعومة التى ليست من حقه فأصبح شاحب اللون ، شحيم الأعضاء ، أجشّ الصوت ، مرتجف القلب ، مضطرب الضمير .

هال الرجل أمر مصيبته ففزع إلى التداوى فجىء له بصفوة الأطباء .

نصح له الطبيب بالملاهى ليستريض بأنوارها وحسناتها وحسانها فلم يزده اللهو إلا سقمًا على جسمه ، وسعيرًا فى نفسه .

نصح له الطبيب أن يتعدى البلاد ويجوز الشرق للغرب وينعم هناك بأرض حيا الله رباها ، وجدد بهجتها ، فلم تزده بلاد البهجة والنعيم إلا همًا .

وصف له الطبيب إكسير البحار ، وهواء الجبال ، وعصير القلوب والأكباد . وصف له الطبيب ما وصف فلم يبق من الأدوية ولم يذر ولكن ظل فيه الداء .

وبينما هو ذات يوم يفكر فى حاله ، ملقى على مقعده ، إذ ساقه النوم إلى عالمه فرأى فيما يرى النائم كأن الحائط قد انشقت وظهر له من خلفها شبح نورانى يكاد يكون وجهه كالشمس أو كالقمر وسمع صوتًا ينادى بأن العلة لا تزول إلا بغذاء من رغيف طاهر معجون بدم الناس ، بدم لا ينبع من جرح ، ولا يرشح من مرض .

ذعر الرجل من هذه الرؤيا وضرب فى الأرض يسأل كل عالم بتأويل الأحلام حتى التقى بشيخ من أهل الله صالح قال له أنا آتيك بتأويل رؤياك فاتبعنى وسار به بعيداً بعيداً عن المدينة وانتهيا إلى شجرة عجوز بارك الله فى ظلها لمن يلجأ إليه من عملة المزارع الواسعة القريبة اليها وجلسا يرقبان رجلاً عليه ثوب خلق أزرق يعمل بجد فى الأرض .

ولما كادت الشجرة تنتقل ظلالها ، وتتوسط الشمس فى السماء مال العامل عن عمله واتجه نحو الشجرة والعرق يتصبب من جبينه واشراق الجهد الصالح يتألق على وجهه وانتحى ناحية فى ظلها الواسع وأخرج من جعبة حقيرة رغفاناً تكاد تكون سوداء ومعها نبات يؤكل ، ودعا الشيخ وزميله دعوة الكريم ، فتقدم الشيخ إلى الطعام وأشار على زميله العليل باتباعه وأكلا من طعام العامل وشربا من مائه .

شعر العليل بنوع من الرغبة فى الطعام لم يكن يشعر به من قبل وبدأ يفكر فى أمر الحياة واختلاف جهد الناس فيها ونصيبهم منها وأخذت تتسرب إلى فكره طائفة من الخواطر من شأنها

أن تكسر حدة الطمع وتحقر النعيم المكتسب من وراء الذلة والدناءة ، وتهدى إلى حياة الرضا ، والبساطة ، والحلال . وكان فى ذلك اليوم بدء الشفاء .

*
* *

أن رغيف العامل الفلاح معجون بدمه وعرقه وبينما هو يهيئه تنقض على كتفه غربان من البشر، يختلسون من لحمه الطاهر طعاماً هنيئاً فيئن وهو صابر ولكن الله عدل شهيد يعطف على الفقير المظلوم جزاء صبره ، ويصيب الغربان بمرض فى الجسم ، ووخز فى الضمير

شرنقاش فى ٨ من اكتوبر سنة ١٩١٥

الشباب المدبر

والشعرة البيضاء

أيها القارىء الصديق الشاب

ان الفتى الذى الق عليك قوله كان من هؤلاء الذين أعزهم الله بآية الشباب فقضى ربيع العمر بين لذة الحب ولذة الأمل ، ولذة العمل ، ولبث يعدو فى ذلك السبيل الزاهى حتى اشتعلت فى رأسه شعرة بيضاء أدرك بها أنه قطع فى سبيل الله ما قطع ، وانه كاد يدخل فى مسلك قفر من نعمة الصبا ، ونعيم الغزل .

ظن الفتى أن تلك الشعرة هى نذير كاذب بفوات الشباب ، وزعم أنها فوتت على نفسها غذاءها من لحمه ودمه فابيضت فخاطبها قائلاً :

« ليس لك أن تزعجينى أيتها الشعرة ، فما زلت بحمد الله فتياً أحب زهرة الربيع الوليدة العطرة ، وأطرب من حديث الغانيات وأصبو لذكر كل عمل مجيد .

ما زلت محباً للحياة أعانقها إجلالاً لما فيها من عظمة ، وحرصاً على ما تظهر به من جمال ، فيغشانى الليل ويجود بفترة هادئة تقبل علىّ فيها طوائف الرغبات واذا بخل الدهر برغبة جاد الليل لنا عنها بجميل العزاء .

يلحق الليل النهار فيشرق وجه الوجود وتلقى شمس الصباح في نفسي قذيفة من القوة أتعقب بها كل عمل صالح . وهكذا اليوم الصالح ان اغلق في الليل عن عزاء فانه يفتح مع الفجر على نشاط ورجاء .

هذه يمينى أيتها الشعرة البيضاء ، محشوة بالعافية وها ثان قدماى تحملانى على الأرض غير وجلتين ولا متخلخلتين ، وهذا سمعى ليس به وقر ، وهذا بصرى حديدا ، فاذا كنت أيتها الشعرة نذير الهرم ، والهرم نذير الموت فاجعل اللهم يوم لقائى لك فى أيام الشباب فلقد نعمت به ولقد أحببته ووددت لو ألقاك اللهم فتياً .

يقولون إن فى تلك الكواكب البراقة أودية وظلالا فأى فتاة من أهل السماء تنتظرنى اليوم تحت كروم هذا النجم اللامع لأقبلها وأشرب من عصير تلك الكروم واستأنف الحب فى عليين . على مرأى من الملائكة والمطهرين »

*
* *

وا أسفاه لو فات الشباب ولم نقض من الشباب اربته .

أن الحياة جميلة وخير ما فى الحياة ربيعها وخير الربيع ما انقضى بين الحب والعمل والأمل .

شرنقاش فى ٥ من نوفمبر سنة ١٩١٥

الدعوات

على ذكر الحرب

لأهل القرى أصوات أجهر من أصوات المتحضرين وربما كان ذلك لأن صدور القرويين هى أقدر على دفع الهواء وهزه بقوة، أو لأن هواء القرية غير ممزق بالحركات المختلفة التى تقوم عليها المدينـة ، أو لأنه بليل برطوبة النبت الغض والحقول العطرة ، أو من هـذه الأسباب جميعاً : ولقد طوح النوم عنى صوت علا غير بعيد من نافذة غرفتى يدعو لآخر بالبركات . وبمقدار ما آلمنى أن أتخلى عن راحة كنت فى حاجة شديدة اليها سرنى أن استقبل الصباح على صوت امرىء من الأنس يبغى الخير لأخيه.

أثار ذلك الحادث فى نفسى خواطر شتى تطوف حول الدعوات وتجر الى البحث فى ماهية الأمانى، وما ينجم من الشعور بالضعف عند عدم نيلها وما يكون من الاستنجاد بقوى عظمى تذعن لها قلوب الناس يوم تظل عقولهم وقدرتهم قاصرة عن إدراك ما يطمع العلم فى كشف أسبابه وغير ذلك من المسائل التى يطرحها أهل العلم للتنقيب .

وقد يكون للسادة رجال الدين آراء فى تلك المطالب التى يوجهها العبد الى رب حكيم قدير إن شاء ردها وإن شاء لقيها بقبول .

لست اليوم أبحث فى الدعوات من سبيل السادة أهل العلم أو من وجهة السادة أهل الدين وحسبي أنها نزعات فطرية موجودة فى البشر منذ علم للبشر تاريخ . يسجل القلب تلك النزعات ثم يرفعها اللسان نحو ملكوت مسير الأمور ومصرف الأحوال .

ولقد كان الناس قديماً يوجهون دعواتهم عند رحاب انصاب معظمة ، أو أرباب مكرمة ، ويقول المتدينون إن الله يتقبل الدعوات اذا صدرت عن قلوب طاهرة ليس فيها غل ولا دنس .

كم فى الأرض من دعوة رفعت عن لسان والد يطلب الخير لذريته ، أو نبي يطلب الغفران لملته ، أو حاكم ينشد التوفيق لأمته ، فهل من دعوة رفعت الى الله من قلب نقى ليصير السلم عاماً والنار سلاماً

*
* *

يقولون أن بعد الشدة الرخاء ولقد شهدنا شعوباً غرس الله بهم زرعاً ، وشاد بهم عمراناً وأقام لهم مجداً فحل بهم القضاء ،

وجرت فى أوديتهم الدماء ، وكم من قلب يرجو لو وضعت الحرب أوزارها فما لله لا يستجيب ؟ ألأن قلوب البشر لم تزل غير نقية لا يرضيه دعواتها ؟

*
* *

تداول الدعوات بين الناس نذير بأن القلوب تتهيأ للحب ، ومتى ساد الحب القلوب ساد الأرض السلام .

شرنقاش فى ١٢ من نوفمبر سنة ١٩١٥

الكأس المرة

قرأت فى صحيفة من صحائفه ما يأتى :

« كان الحر فى ذلك اليوم شديداً . والسائر فى انحاء المدينة يستر وجهه من هبوب ريح سخينة محملة رمالاً مصفرة يخشى الصدر أن يصيبه أذاها فيستنشق نصيبه من الهواء بتؤدة وأناة وكان الناس يحاربون هذا الوجود الشاق على الأجسام باستمرار المثلجات لترطيب دمائهم ترطيباً . ولما آذن النهار بالانصراف كأن ملائكة فى السماء خلطت أنفاسها الطيبة فى ذلك الجو فطفىء لهيبه شيئاً فشيئاً وترك القوم مضاجعهم الى القهوات يستقبلون ليلة حلوة من ليالى القاهرة .

خرجت الى القهوة فى بدء المساء وكنت أكاد لا أجد لنفسى مكاناً لوفرة الجالسين فانتحيت جانباً بين ذلك الجمع وكأنهم كانوا من الذين لم تحل بينهم هموم الأيام وصروفها و بين ساعة سرور تقضى فى لذة الشراب .

الجعة صفراء ، مرغية ، نقية ، خالصة ينم عن برودتها بخار الماء المحيط بزجاج الكأس ، ونسيم الليل المنعش يحمل رائحة حببها

الخمرية إلى المشامّ ليثير رغبة الشاربين ، ونور الغاز شديد يظهر صفاء تلك الكؤوس المرصوصة صفاً صفاً والساقون يروحون سراعا بأكواب فارغة ويعودون بها ملأى ، والبؤساء من صغار الباعة أو السائلين ينسلون دون أن يشعر بهم أحد لأن السقاة شغلوا بعملهم والناعمين يلهون بنعيمهم وكأن هؤلاء البؤساء كانوا رسائل من عند الله يذكرون بتفاوت حظوظ الناس .

لفت نظرى رجل بائس واهن القوى. نحيل الجسم ضعيف البصر ، يحمل على كتفه العانية فتاة توسدته فنامت وأسدل شعرها أصفر هملاً جميلاً على كتفيها الصغيرتين .

تنام الطفلة فى الساعة التى من حق الطفل فيها أن ينام على فراش لين هادىء ولكن المنكودة تنام فى غير مأوى . يطوف بها والدها المجرم الجانى حيث فصلها من دمائه المعذبة لتنال نصيبها من الشقاء . لا أدرى لماذا يلد الناس إذا لم يكن لأولادهم سهم فى النوم الهنىء ، ولا فى الطعام المرىء !

نظرت الى الرجل فاضطرب رأسى بأفكار متناقضة وفؤادى بعاطفة ليست محدودة ولا مضبوطة ، فكان يدفعنى عامل من

الشفقة والحنان ويهزني عامل آخر من القسوة والظلم ولربما كان في القسوة والظلم كيان هذا الوجود .

نظرت الى الرجل نظرة متنمرة ورفعت الكأس في يدى وكأني كنت أتخيل نفسى جندياً مظفراً في معمعة كبيرة هائلة قد نسى من لذة النصر ما تحت بصره من هول الموقف وبشاعة المنظر .

رفعت الكأس لأشربها في صحة الظافرين أمام من لا يجد خبزاً ، أشربها صرفة أمام من يتجرع الذل والهوان ، ولكن فرائصي كادت ترتعد من بقايا شفقة كانت في نفسي ولم يكن ما القي من عسف العيش ، وظلم الوجود ، ومر الحياة لينزعها من ذلك الفؤاد .

شربت الكأس دفعة واحدة على أن مذاقها قد كان واأسفاه مراً . . . »

القاهرة في ٩ من يونيه سنة ١٩١٥

على مسرح الادارة

قرأت فى صحيفة من الصحف ما يأتى :

« من زمن غير بعيد وأنا أمثل دورى على مسرح أعمال الادارة وكنت قبل ذلك أشتغل بالزرع ، وأدير شؤون فئة من العمال يسعون تحت عينى فى أعداد الأرض ، وتهيئتها ، لتنبت رزقنا جميعاً . كنت أساجلهم الحديث وكأنى بهؤلاء الفقراء لا شكاة لهم من الفقر ، ولا يتذمرون منه لأنهم يملكون متاعاً طيباً غير المال بجانب رزقهم الضئيل ، يملكون الهواء الطلق ، ورئتين واسعتين تخرج قهقهة الضحك عالية وتهز الهواء هزاً . يملكون زهر الربيع ، ودر الندا ، ونور الفجر المنبثق ، وجمال الأصيل ، وهدآت الليل الساكن ، وكواكب الصيف الريفى الجميل .

كنت قرير النفس بأعمال الحقول ، وكادت تنسينى الحياة الريفية الرتيبة ، التى قل ما يتناولها التغيير كثيراً ، مناظر العوز الفقر الفاشي بين سكان المدينة ، على انى لما عدت إلى القاهرة نظرت الذي بينهم وساقنى القضاء المحتوم إلى عمل عامّ بعاطفة ليست مخلصب الادارة تبينت إذ ذاك صورة جديدة

من أحوال البشر: صورة التنافس فى السلطة، والمكر السىء والمكر المحمود، والخديعة، والحسد، والجبن، والتشفى، والنفاق، والرياء وغير ذلك من صفات تلصق بالجماعات التى تتعدد فيها الوظائف وتتفاوت فيها مراتب الموظفين.

بين هذه الوجوه كنت أرى الوقت بعد الوقت وجهاً شاحباً خجولاً، وجلاً، يلعب به الرجاء، ويصرعه اليأس. وجه الفقير يلتمس عملاً ليأكل خبزاً، ويحمل ملتمسه على قرطاس جميل بخط جميل واهماً أن جمال الطلب وسيلة لقبوله.

كنت فى بدء حياتى الادارية كثير العناية بهـذه الطلبات أقرأها واستعيد قراءتها. وأحملها مسرعاً الى رؤسائى آملاً أن تصيب قبولاً فاحمل البشرى عن ارتياح وسرور.

تكررت هذه الطلبات، وتكرر رفضها من الرؤساء، وألفت شيئاً فشيئاً قساوة هذا الرفض، وبعد أن كنت أحمله إلى أربابه متلطفاً متأسفاً أصبحت أحمله اليهم كما أحمل أى نبأ لا يتحرك له الفؤاد.

سافر رؤسائى إلى مصايفهم وزودونى ضمناً بـ
إلىّ بعض الأعمال، فمن أيام تناولت كتاب

الذين يمضون نهارهم فى البحث عن عمل صغير فى المصالح أو كتابة خطابات لرؤسائها يسترحمون ويتظامون اليهم من الفقر وحمل العائلة .

كان لهذا الكتاب ميزة تظهره على أمثاله ، كان مرسوماً على ورقة نزعت من كراسة تاميذ فى بدء سنى دراسته ، والورقة مصفرة والمداد الذى كتب به كأنه مداد طفل طالما خلطه الطفل بالماء .

واليد التى خطته هى يد عانية لا تجيد رسم الحروف والقلم الذى صاغه لا يحسن صوغ الجمل . ليس فى الخطاب أكثر من المعنى الذى تعودنا وعيه من مثل ذلك الكتاب :

الرجل فقير وذو عائلة ويلتمس من مراحم صاحب السعادة عملاً ليأكل منه الخبز وهو يدعو لصاحب السعادة عند الله بطول العمر .

كان ذلك الخطاب فى مجموعه كالامل الشاحب الضعيف وضعته أمامى وغمست الريشة فى الحبر الأحمر ورسمت عليه كلمة الاهمال التى علمنيها أصحاب السعادة الرؤساء !

رسمت الكلمة بغير رفق فتمزق من الخطاب شىء وتثرت الريشة قطيرات حمراء كأنها دم الفقيرانتثر من قلب ممزق .

ناديت الكاتب ليحمل هذا الأمل الضعيف المهزوم .
ناديته ليحمله ويقبره فى اضمامة الأوراق المهملة مع أشباهه ولعله هناك يتضامّ إليها ليشكو إلى الله حال صاحبه فان الله رحيم ولكنه نزع الرحمة من نظام الأعمال الاجتماعية فليست الرحمة من قواعدها .

القاهرة فى ٢٣ من يونيه سنة ١٩١٦

واسع الرحمة

سرت من نحو ثلاثة أيام فى جنازة متوفاة على دين المسيح ابن مريم ، وقد ألفت كما ألف غيرى مرأى جنازات النصارى فليست غريبة عندى الرسوم التى يتخذونها فى تشييع أمواتهم ولكن كانت تلك هى المرة الأولى التى ذهبت فيها الى مقابرهم فى تشييع راحل عن هذه الدنيا .

رأيت فى قبورهم حسن النظام وتصوير الأبدية فى صورة تجمع الى جلال الموت جمال السكون . على أن ذلك لم يكن ليغرب عنى فان الرقى المدنى الذى اختلطت به حياة الفرنج لا بد أن يكون له أثر فى جميع نظمهم : فى الحياة وعند الممات .

وصل المشيعون إلى المقبرة . وهناك خف وطؤهم ، وخشعت أبصارهم ونزلت عليهم السكينة وحياً من عظمة الموت بل من جلال الأبدية وعظة الفناء .

لفت نظرى بين هـذه المناظر المرهوبة قوم من السائلين المسلمين ينتظرون عند الباب العطف والرحمة .

لقد أحسن هؤلاء البائسون فى اختيارهم تلك المواقف عند أبواب القبور فان المرء بعد زيارته هاتيك المواطن المحترمة يخفض

من كبريائه ويرق قلبه ، ويصبح رؤوفا بالضعيف ، حنانا على السائل المحروم .

لفت نظرى ذلك لأن عاطفة الرحمة تمثلت لى فى هذا المكان وفى تلك الساعة فى أجمل صورة يجب أن تكون عليها الرحمة . عاطفة تخرج من جانب القلب فى سبيل الله إلى كل عاجز ضعيف . عاطفة طاهرة لا تبصر الا الضعف والحرمان .

رأيت على باب مقبرة النصارى سائلين من المسلمين . وما أحسبنى رأيت قط فى مقابر المسلمين مسيحياً يطلب الاحسان .

يا ليت شعرى : أراجع ذلك إلى طبائع الجماعتين فى فهم معنى الرحمة ، وفى الجود بها أم أحسن المسلمون إذ فهموا أن الرحمة لا دين لها فأصبحوا يلتمسونها عند مقابر من ليسوا على دينهم ، وأساء النصارى الفهم فزعموا أن الرحمة لا تخرج خالصة لهم من بين مقابر المسلمين فلم يطلبوها لدى أبوابها ؟

أما آن للناس أن يفهموا أن فى الصدور عواطف تود لو تعيش فوق المذاهب والاختلافات ، وأن أحق العواطف بالرعاية فى نزعاتها الحرة عاطفة الرحمة . كتبها الله على نفسه وهو واسعها لعباده جميعاً .

القاهرة فى ١٦ من اكتوبر سنة ١٩١٦

ساعة عبادة

فى طريق الرمل رقت سلم الترام مع أمها وأظن أنها تسكن فى «حلة قيصر». صعدت حيث يصعد الناس على ظهر المركبة رغبة فى الهواء الجارى وتسريحا للنظر ينطلق فى امتدادات الأفق المتصل ببحر الروم. استقلت الفتاة بمجلس كان من الحق أن يشغله اثنان واستباحت لنفسها أن تستأثر بالمكان وحدها لقلة الذين كانوا فى المركبة وقتئذ.

جلست بمعزل متجهة الى البحر، متخذة سياج المركبة مسنداً لظهرها ووضعت ذراعها على متكأ المقعد ثم أسندت رأسها على ذلك المعصم الجميل النحيل. شخصت الفتاة بعينيها السوداوين الطويلى الهدبين الى الأفق المتدلى على البحر وانفرجت شفتاها الورديتان عن ابتسامة تكاد تتفتق كما تتفتق الأكمام فى أول تحولها الى زهر نضير وغابت بذهنها عن الناس كأنها كانت تخاطب خلقاً فى الملكوت الأعلى. وكان النسيم يعبث بخصل شعرها الطويل المرسل الأسود فيطوحه برفق الى صدرها ثم ينزعه برفق عن هذا الصدر المشرق المزدان بصليب ذهبى وهاج متصل بسلسلة ذهبية تطوق عنقاً لا يعيبه طول وقد تجاوز حد القصر.

اتجهت حيث يقع بصرى على هذا الخلق الفتان . لم أختلس النظرات اختلاساً وإنما رأيت أن أشبعها حسنا غير مكترث بما قد يأخذنى به الناس من تلك النظرات لأنى كنت حينئذ طاهر النية أمام الله فلا يخجلنى أن أتمتع متاعاً طاهراً بجمال فتاة لا تكاد تبلغ الرابعة عشرة . الفتاة ذات سمرة تبعدها وأهلها أن يكونوا من أهل الشمال ، والفتاة صغيرة السن لم تتعلم من الناس بعد أن الجمال كثيراً ما يتخذ وسيلة للخيلاء والغرور ، والفتاة لم تتعلم بعد من الغزل إلا ما علمتها الطبيعة من الميل الى كل شىء جميل فكأنها كانت تغازل البحر والنسيم أو كأنها كانت تداعب الأملاك الذين يخفون صورهم عن خيالنا المنطفىء ويظهرونها فى رؤوس الأطفال فتراهم يسرون ويبسمون لنغم مريح يسمعونه ولا نسمعه . الفتاة جميلة جميلة ! ! . على المقعد الجنيب لمقعدى كان يجلس قس شيخ بمسوحه السوداء وبيده كتاب من تلك الكتب المنزلة وكان القس يقطع سطوره صامتاً متعبداً .

ليت شعرى . أى العبادات كانت الى الله أقرب يا صاحبى القس ؟ أعبادة رجل يرى الله فى الكتاب ! أم عبادة من كان يعجب بالمصور الاكبر فى صورة بديعة صورها ! ؟

الاسكندرية فى ٢ من أغسطس سنة ١٩١٧

شكوى الى الله

كثيرا ما تكيدنى الأيام والليالى فتحول بينى و بين كل عمل أتسلى به وتصرف الى نفسى ضجراً والى رأسى طائفة من الأفكار لا أسيغ معها القراءة . ولا يلذ لى معها الحديث . عند ذلك أفر من سكون الدار فراراً . وأفر من وجوه الاخوان الى حيث تقودنى قدماى فى الأسواق فأقف أمام الحوانيت أتسلى بالنظر فيها الى ما يباع ويشرى . واليوم وقفت عند حانوت وراق بالأزبكية ، وطلبت الى البائع الفتى أن يعرض علىّ صنفاً من البطاقات عليه رسم الوجوه الحسان .

لبى البائع الطلب وقدم لى منها عدداً وفيراً فرأيت على واحدة رسم جندى يقبل فتاة جميلة وكتب تحت الصورة : من وهب حياته للمجد حق له أن يسعد بقبلة من تلك الشفاه .

وعلى ثانية رسم جندى يبسم لفتاة تودعه وكتب تحت الصورة : سأخضع العدو كما أخضعت قلبك .

ورأيت على ثالثة رسم فتاة وفتى تدل سحنتهما على اختلاف بينهما فى الجنس . فى شمال الفتاة زهرة وفى عينها عين الفتى

وكتب تحت الصورة : كما اتحدت أوطاننا تتحد على الحب طول الحياة .

ثم رأيت على رابعة صورة زوج تقدم لزوجها الجندى هدية عيد الفصح من حلواء وزهر وكتب تحتها : هذه الحلواء وهذا الزهر الذى يباركه الله فى عيده أرجو أن يكون من شأنه أن يرفع مجدك ، ويبقى لى قلبك .

أخذت أقلب البطاقات واحدة بعد واحدة وفى داخل النفس أنة تنفر من الحسرات فتمزق الفؤاد تمزيقاً وفى العين دمعة تترقرق من الذكرى ويمنعها الحياء من السقوط .

أخذت أقلب البطاقات واحدة بعد واحدة وأقول فى نفسى أى بطاقة يكون فيها العزاء لمن أصبح لا يجد حبيباً يبثه كلمة الحب ، ومن لا زوج له تشاركه باخلاص فى هموم الحياة ، ومن هو من جنس قد تغمطه حقه الأجناس ، ومن ليس له حول يدفع عن وطنه به الأذى ؟

يا صاحب الحانوت يا صاحبى هل من بطاقة ترسم عليها السماء دليلاً للعزة الآلهية ويكتب تحتها : الى الله يرسلها من تملأ نفسه الشكوى ؟

القاهرة فى ٢٤ من اغسطس سنة ١٩١٧

يمين رولان

أرأيت إذ تمر فى أحياء المدينة الكبرى متسعاً من الأرض عليه أكوام من الرمل، وألواح من الحديد والخشب، وأكداس من الحجر والجير، وعليه ما تعلم وما لا تعلم من المواد ومن آلات التشييد والتعمير؟

تلك المواد وتلك الآلات أكثر ما يستخدمها أهل المعمار من مهندسى الغربيين أمثال رولان وغيره ممن يعيشون بيننا.

أرأيت هناك آلة يحركها البخار مسلطة على ذراع من الصلب كأنه ذراع النمرود وهل رأيت هذا الذراع العاتى الجبار يرفع من الأرض كتلة حديدية ضخمة فاذا قطع بها الى السماء سبيلا تركها تهوى، فترتعد حينئذ فرائص البطحاء حتى اذا بلغت الكتلة مقرها اهتزت منها جوانب الأرض اهتزازاً، واندكت منها دكاً، وكادت من هولها تمور؟

تلك الآلات وذلك الذراع هو ما أعنى به: «يمين رولان» وان شئت فسمه يمين المعمار الغربى.

*
* *

طالما وقفتنى تلك العدد مع نفر من الضاربين فى السبيل.

طالما وقفت لأشهد جبروتها ، وطالما أخذت الخواطر تنعطف على رأسى ، وترسل معها على وجهى وشفتى ابتسامة وادعة بريئة من كل ذنب .

*
* *

أغداً — أقول فى نفسى — يصبح ذلك المتسع من الأرض الذى تضرب فيه أثقال الحديد ، وتحفر فيه فؤوس الفعلة ، وتخطه بنان المعمار . أغداً يصبح ذلك الفضاء عامراً فيرتفع فيه البيت الشامخ العديد الطبقات ، العديد الشرفات ؟

أغداً تطمئن فى تلك الدور الآباء والأمهات والبنون والبنات والعروس وعروسه ، والحبيب والحبيب ، لهم فيها مسكن ونعيم وقد أمر من وراء حجراتها واقطع طريقى فى طول أسوارها ولا يصيبنى إلا ما شاء الله من هناء الطرف بالقصر المنيف والدار الشامخة ، وقد يفلت الى سمعى من إحدى نوافذه نغمة شادية ، أو دقة عازف تطير من تحت أصبعه رنة ينشرح لها صدرى ، ويرتاح لها قلبى ، وتجرى بها مهجتى ؟

*
* *

وحقاً يا أخى ما هى إلا أيام معدودة حتى يستقيم البيت ، ويتنفس العمار فى أرض كانت بالأمس خراباً وكل ذلك يرجع

أكثر الفضل فيه الى تلك الآلات التى جهزها العلم والتى اصطلحت بينى و بينك على أن نطلق عليها اسم « يمين رولان » .

*
* *

إلا أننى لا أخفى عنك أيها الصديق القارىء أنه على اعجابى بتلك العدد والأدوات ، ومع إكبارى لكثير من مظاهر المدنية الحديثة فى تخطيط المدن وتصوير المنازل، فان حسرة تستولى على نفسى عند ما تضرب « يمين رولان » على وجه أرضنا من غير رحمة ولا اشفاق فتزول من آثارها رسوم مدننا ، وتضمحل أشكال هندستنا ، وتتحول أنظمة بيوتنا ، وتتغير أساليب عيشنا وعاداتنا الخلقية ، وكثيراً ما تتناسب العادات والأحوال النفسية مع ظروف المكان والمحيط .

واحسرتاه على منازلنا التى نبتت فيها طبائع الكرم ، وشيم الوداعة ، تستحيل الى بيوت غريبة تملأها آلاف من الناس كأنها ثكنات الجنود ، أو مكامن النمل العديد .

واحسرتاه على تلك « المناظر » التى كان يغشاها أجدادنا وآباؤنا فيصرفون فيها سمرهم ، وينشرون فى جوها أنسهم ويفيض فى جوانبها جودهم المطبوع ، وحسبهم المرفوع .

واحسرتاه على تلك الدور ذات « الحيشان » والغرف الوسيعة التى لا تضيق فيها الصدور وينطلق فيها المحيا بالبشر والايناس .

واحسرتاه على كثير من المعالم الشرقية يطغى عليها سيل الغرب الجارف فيغرقها وكم فيها من جمال !

*
* *

إن فى مظاهر عيشنا ومدنيتنا ، الطيب الصالح فلنستمد له من مدنية الغرب دون أن نضيعه ولنعمل على أن لا تستبد بنا المدنية الغربية فى كل أمر ، ولنعمل على أن تترفق بنا « يمين رولان » العاتية .

القاهرة فى ٣ من نوفمبر سنة ١٩٢٢

القهوة والبيت

نبهنى صديق الى قهوة فى إحدى الطرق التى يكثر فيها غدوى وزواحى . لم تبلغ تلك القهوة من العمر إلا أياماً . عليها نضرة الشباب ، وعليها بهجة الجديد ، وهى مغمورة فى لجج من الأنوار ، ويغشاها الناس فيعمرونها كما يعمر الجامعات طلاب العلم المخلصون .

تواجه القهوة حارة هادئة تجد فى أقصاها مساكن لم يرفع الغنى أهليها الى طبقات الدور الشامخة ولم ينزل بهم الفقر الى تلك الموائل التى تجثو الى الأرض فتكاد تغور فيها غوراً .

وقفت ذات ليلة فى الطريق البرزخ الموصلة بين القهوة وبين الحارة بحيث أشعر بالسكون الشامل لتلك المنازل وأشهد عن بعد من القهوة لآلىء الأضواء وما يجرى فيها من مظاهر الحركة والمرج .

وكأن الحركة والأضواء التى كانت تفلت الى من تلك القهوة العامرة كلمات فيها معنى اللوم ، والازدراء ، والعتب ، والتشفى ، والمفاخرة . كأن القهوة فى هرجها وأفراحها تناجى البيوت فى

سكونها وأساها وكأن البيوت كانت تتوجع من ذلك الحديث وتئن

ايه أيتها البيوت . . .

انك خلوت من الحياة المؤنسة التى تنشرها فى رحابك الزوجة الصالحة والابن النجيب . وانك خلوت من العطف والتراحم الذى يتولد من تضامّ الأسرة ومودة العائلة . وانك خلوت من روح السرور الذى ينتشر من أنس الأخلاء والأصدقاء .

انك لا تستكملين أسباب الراحة والرفاهية . أين منك ضوء درى ؟ . أين منك منافذ تستعطف عليك الهواء العليل ؟ أين منك صور وفنون تتخذين منها زينة وحلية ؟ . أين منك زرابى مبثوثة وطنافس مفروشة ؟ . . .

ان جوى مشبع بالسرور وجوك مشبع باثقال الحزن والنكد انى مضيئة باسمة وأنت مظلمة قاتمة . فانقضى على عروشك .

ايه أيتها البيوت ! . . .

*
* *

كأنى كنت أشعر عندئذ ان منافذ بيوتنا المسكينة الحزينة عيون مقرحة من البكاء ناظرة الى تلك القهوات شاكية الى الله من مر الألم وكأن البيوت تقول :

تبا لك أيتها القهوات ! . . انك تجذبين الى أحضانك الخبيثة أربابنا وفتياننا فيصرفون فيك قطعا من الليل وجزءاً من النهار يتبادلون فيك سمرهم وينفقون فيك أموالهم .

انك تأخذين اليك الزوج من زوجه ، والأب من بين بنيه ، وتجعلين عرصاتنا خالية ، وأجوافنا خاوية .

على أنك أيتها القهوات إن كنت تفخرين علينا بقوم يعمرونك ويتركوننا فكم يغشاك من خامل كسلان لا يرفعه بين الناس شرف العمل وكم يغشاك من ماجن مستهتر دنىء لا تعمر به أرض ولا تغبطك عليه دار . وكم يغشاك من وارث مضيع يأكل من عمل الغير ويشرب من دمه ! !

لا فخر لك علينا . ايه أيتها القهوات . . .

*
* *

يقولون من ينشىء مدرسة يغلق سجناً ، وأقول من ينشىء قهوة يخرب بيوتاً . . . .

يا قوم لا تعمروا القهوات وتهدموا البيوت . وان أردتم بناء مجد الوطن فأعمروا البيت ونظموا العائلة . . .

القاهرة فى ١٠ من نوفمبر سنة ١٩٢٢

فى ذكرى عام

للمرء أن يتسمع ما يخفق به قلبه ويقيد ما يمر من الخواطر بوجدانه . وله أن يخفى منها ما شاء وله أن يعلن منها ما شاء ما دام الناس لا يصيبهم أذى من سره ولا مكروه من جهره .

أقيد بعض ما اتصل بنفسى فى الساعة التى كانت برزخاً بين العام الميلادى الذى رحل وذلك الآخر الذى حل .

غشيت قبل منتصف الليل دارى . والتحفت حرصاً على الدفء بدثارى فى ساعة كان بردها على شديداً . وأخذت على نفسى أن لا أضجع وأن لا أنام حتى يلفظ العام نفسه الأخير . فاذكر له بالخير ما أحسن به إلى وأسامحه فيما أساء . ولكل راحل إلى الله حق فى الذكرى وحق فى المغفرة .

جلست على مائدة كتابتى . وأخذت أعد بطاقات اكتب عليها كلمات التهانىء والمجاملة . وأخذت أحصى الأسماء على قطعة من الورق . فلما انتهيت من ذلك الاحصاء وأعدت عليه النظر تولانى خاطر مزعج اضطربت له النفس. وقد يزعج النفس الأليمة ما قل كما يزعجها ما جل .

غدا أرسل لزيد تلك البطاقة . وفى غد يحمل البريد لخالد تلك الأخرى . وفى غد أغشى دار بكر لابسم فى وجهه .

فى غد يحصل كل ذلك ولكن كم من هؤلاء الذين أذكرهم غدا لا يسعدنى وجودهم ولا يشقينى غيابهم . ولا يسعدهم وجودى ولا يألمون لفقدى . على أنى أجامل الناس كما يجاملوننى ، وأخضع معهم لقوانين النفاق الاجتماعى كما يخضعون ... فتباً لأساليب الحياة ، تعلم الناس النفاق باسم الجميل والأدب .

وفى اليوم الذى أحيي فيه من لا تسعدنى بسماتهم ولا خير لى ولهم فى تبادل التحيات ، يحول الزمان وصروف الدهر والغير بينى وبين من كانت تشرق لى بسماتهم ، ومن كان الله يجعل لى من دعواتهم ظفراً وسعادة . . . ان الحياة تقوم حقاً على معاندة الانسان .

تركت مائدة كتابتى وفتحت باباً لأصل بين غرفة نومى وغرفة عملى حتى يتسع المكان لسيرى وخطواتى التى يستفزنى اليها القلق ، ثم جعلت أدخن بشدة بين جيئة وذهاب فى مدى الغرفتين ، ثم استلقيت على كرسى كبير وشرعت أتسلى برؤية ما أدفعه فى جو الغرفة من دخان يذهب من صدرى ذرات متآلفة

متقاربة ثم ينتشر ، ثم ينبسط ، ثم يتلاشى فى الجو كأنه لم يكن .

أخذت أتذكر فى مكان الله الواسع أراضى أحببتها ونعمت فيها حيناً . وتذكرت فى زمان الله الواسع أياماً كالعسل قد مضت وانقضت . وتذكرت من خلق الله الذى لايحصى عدداً أشباحاً تلاشت فى ظلمات الثرى . تذكرت وتذكرت وتذكرت كثيراً .

اذكرونا مثل ذكرانا لكم رب ذكرى قربت من نزحا

ثم أخذت أحاسب نفسى على زلاتها . وأزن أمامها آمالها . وأتبين فى ذهنى ، بل فى غشاء قلبى ، بل فى لحمى وعظمى ما فعله به الزمن ، وما رسمته عليه السنون .

وبينما أنا مستغرق فى أمرى نبهتنى من غرفة أخرى دقات الساعة الكبيرة الى الاهبة لوداع عام يفوت . . .

كأن دقات الساعة كلمات يعدد بها العام المنصرم بعض ما يذكره لنفسه من خير وشر . كان العام يقول فى دقائقه الأخيرة

تن . . . سخرت من الغافلين حتى صحوا من الشدة والمحن ...

تن . . . أغريت الانسان بالذهب الوهاج فتهافت على ناره كما يتهافت على النور الفراش . . .

تن . . . جعلت فى الناس والأمم من يعملون لقتل الضعيف وإن كان بريئا .

تن . . . آويت اللص ، وسترت الخديعة . وكثيراً ما أعليت الباطل على الحق . . .

تن . . . نفرت بين قلوب وأشعلت ضغائن وأثرت فتناً . . .

تن . . . صرفت الناس عن وجهك يا ألله ليعمدوا إلى الأثرة والشهوات . . .

تن . . . تمخضت بآراء وقدمت عظات وعبراً . ولكن الناس لا يفقهون . . .

تن . . . أحرقت أفئدة وأجريت دموعاً وشربت دماء . . .

تن . . . كم من صحيح أضعفت . . . وكم من عزيز أذللت . . . وكم من عليل داويت . . .

تن . . . جردت أشجاراً من ورقها الأصفر الجاف . . . وابدلتها منه ورقاً جديداً . . . وجعلت عليها زهراً نضيداً . . .

تن . . . صرفت العاشقين وهم فى سكرات القبل عن مرارة العيش . ثم أخذتهم أخذ الجبار فبدلت هناءهم تعساً . وبدلت سعادتهم شقوة وجحيما . . .

تن . . . لبيك اللهم لبيك . . .

وما كادت تضمحلّ في أذنى الرنة الأخيرة التى كانت تمام الساعة الثانية عشرة من منتصف الليل لآخر شهر ديسمبر من سنة ١٩٢٢ حتى تصعدت من قلبى زفرة وحارت فى عينى دمعة . عندئذ وجهت وجهى شطر السماء قائلاً :

أيتها الأزلية التى تجتمع فيها الأزمان المتوالية وتستقر عندها الأحقاب المتتابعة . وتتوحد فى وحدتها جميع الخلائق . مغفرة لما قدمنا من ذنوبنا وما أخرنا . وصفاء لنفوسنا بما تصفو به نفوس الصالحين . . . اللهم آمين

القاهرة فى ٥ من يناير سنة ١٩٢٣

فى نعيم الفن

. . . ثم ذهبت الى الملهى

وهناك عزف العازفون وتضاءلت الأنوار . وامتلأ المكان نغماً . وتشبع الجو أريجاً .

ثم تطاولت الأعناق ، وتوجهت الأبصار . ثم عم السكوت، وحق الانصات فلا تسمع حسيساً .

ثم انحسر الستار عنهن . وكن نسوة كثيرات ومعهن رجال . ثم انصبت الأضواء ذات الألوان من الثريات والآلات على تلك الأجسام ليظهر كل جزء من أجزائها . وكل حد من حدودها وتقاسيمها . وكأنهن كن يسبحن فى لجج من شموس وأنوار .

ولقد ذكروا لى خيراً كثيراً عن «الجوقة» الروسية الراقصة التى وفدت الى مصر قريباً وكان الحق فيما ذكروا . وكنت أتمادى فى التردد إلى الذهاب لأشهد هذا الفن خضوعاً لصوت كان يدب فى نفسى ، وخضوعاً لما يستكن فى القلب من عادات وعقائد قد نشأت من آدابنا القومية وأخلاقنا . فكنت أقول أأذهب إلى مجالس الرقص ، وطالما أحببت أن أكرم نفسى بمجالس

الكمال . وكنت أقول أأغشى مطارح الأهواء والمجون ، وطالما ألفت أن أعرض نفسى للجد والعمل . على أننى عامت بعدئذ أن فى اللهو ما قد يدفع للجد ، وأن فى مجالس المجون ما قد يستفز للكمال ، وأن فى المسارح ما قد يرفع الانسان من عالم الاشباح إلى عالم الأرواح . وكذلك رأيت من رقص « أنا بافلوفا » وكذلك ما سمعت من نغم . أحقاً كانوا من نسوة ورجال يذهبون ويجيئون على مرسح التمثيل ؟ أم تلك طيور كانت تتهادى ؟ أم غصون كانت تمايس ، أم تلك أزاهر كانت تطوح بها النسمات ؟ أم تلك اشارات من السحر عامتها الملائكة للبشر فكانت توجه النفس الى التسبيح والتقديس ؟ أم تلك اشارات إلى الملأ الأعلى تدل على أن فى الفن الجميل معراجاً إلى الله .

تالله ما ألم بنفسى نخش عند ما تمايلت المتمايلات واهتزت القدود ، وتوردت الخدود .

وتالله ما ألم بها نخش عند ما درج الدارجون ووثب الواثبون .

وتالله ما ألم بها نخش عند ما تخاصر المتخاصرون ، والتفت الغصون بالغصون . كان أذرعاً وأيدياً عند اشارتها تستخرج من الفضاء حسناً كامناً فتنثره الى الابصار فتشعر به القلوب . وكأن

أرجلاً تحجل على نغمات القيثار والأعواد تقطع فى الفضاء مسلكا من الحسن تتبينه عنـد تلك الخطا . ذلك كان رقصهم ولقد أصبحت أستنكر أن أطلق اسم الرقص على تلك الحركات عند ما أتذكر مراقصنا التى رأيتها تدعو إلى الفجور، وتناجى النفوس بالفحشاء والمنكر .

كانت الراقصة طيراً تمثل أجمل ما على الطير. وكانت الراقصة زهرا تمثل خير ما تتلون به الزهور وتتشكل به الورود. بل كانت الراقصة خفة ، ورشاقة . بل كانت الراقصة نسيما .

أتظن أن فى حركة الطير ، وفى صورة الزهر ، وفى هبة النسيم ، وفى ملاحة الرشاقة ، ما يدعو إلى البغى والفحشاء ؟ كلا . وتالله ما مر بنفسى نخش فان فى جمال الفن ما يسمو بالنفس عن وساوس السوء وطالما قيد الجمال نفوس الناظرين عند هيكله المقدس فلا يعرفون عنده لغواً ولا كذباً ولـكنهم يعبدون وقد يعشقون

خفى وارقصى ياراقصة الروس وعلمينا من تلك الحركات التى تدعو للعبادة والتقى . إن الله هو ذلك الفنان الأعظم .

القاهرة فى ١٦ من مارس سنة ١٩٢٣

العيش الحقير والعيش الكبير

ليست الحياة ملهى نتوجه فيه بأبصارنا إلى مسرحه الواسع لنشهد أدوار الممثلين . انما الحياة تدعونا لأن يمثل كل منا دوره ويقوم بنصيبه فى روايتها التى تتعدد فصولها ما تعددت الدرارى وما تعاقبت الأجيال .

من الناس من يتهافتون على الخير الذى يصيب عشيرتهم وأمتهم من غير أن يكون لهم فى جلب ذلك الخير نصيب ، ومن غير أن يدفعوا فى مشتراه ثمناً . وأنهم كذلك قد يتوقّون الشر إذا نزل بالجماعة التى يعيشون فيها ، بل قد يبالغون فى سبيل الوقاية وما كانوا ليتنبهوا إلى الشر لولا ان جاءهم بذلك نبأ من غيرهم . ومثل هؤلاء الناس مثل الرجل الخامل فى القافلة يقطع معها الصحراء كيفما تسير حتى إذا بلغت القافلة ماء بعد جهد وعناء ، أخذ ذلك الخامل يروى ظمأه ويسيغ الماء عذباً فراتاً كما يسيغه من أرشد اليه وأتعب النفس للحصول عليه .

اننا نعيش فى حياة اجتماعية نحتمى بنظمها ونتنعم بخيراتها ونتكون من عناصرها ولم تكن تلك الحياة الاجتماعية من عمل

فرد معين أو من عمل ظرف معين . ولـكنها من عمل الجماعة فى أجزائها وفى كليتها ، ومن عمل كل ظرف يحيط بالجماعة فى غابرها وحاضرها وسيرها . وعلى ذلك فقد يكون من العدل أن نرد بجهودنا وأعمالنا إلى تلك الجماعة ثمن ما يصيبنا من حياتها ونظمها.

وفى الحق انها لحياة حقيرة تلك الحياة التى يظهر فيها الفرد مستفيداً من كل شىء دون أن يفيد . متأثراً بكل شىء دون أن يؤثر . منفعلاً بكل شىء دون أن يكون لبعض شؤون الحياة فاعلاً . انها لحياة حقيرة تشبه حياة الحيوان الدنىء أو النبات الطفيلى .

لـكن للانسان حياة أعلى من ذلك وأكبر . لأن للانسان عقلاً وإرادة . فيستطيع بالعقل أن يجعل للحياة قصداً يسير اليه وأن يرسم لعيشه نموذجاً ومثالاً حسناً . وانه بالارادة قد يوجه جهوده إلى الوصول لقصده ، ولتحقيق ما رسمه لنفسه من مثال حسن

نعيش فى بيئة مكونة من مخلفات من سبقونا . وفيها أعمال لمن عاصرونا. ولقد يكون لنا من مخلفات هؤلاء وأعمال هؤلاء ما نستفيد منه ونحمدهم عليه . وقد يكون لنا كذلك من مخلفات هؤلاء وأعمال هؤلاء ما فيه لنا تعس وشقوة . أفنقصر همتنا على الحمد تارة وعلى الذم أخرى ! . . .

يحركنى لمعالجة هذا الموضوع أن أرى فئة من الناس من مواطنينا لا هم لهم الا أن يستفيدوا لانفسهم من العيش دون أن يحاسبوا ضمائرهم فيفكروا فى مصلحة الجماعة ويتذكروا أن ما يصيبهم من خير كانت الجماعة منشأه وما قد يصيبهم من سوء قد تكون الجماعة مصدره . ان الانسان الرشيد مكلف فى كلتا الحالتين أن يعمل لتمكين الخير، أو لدرء الشر .

لقد أكره الجامد الذى يحرص على ما ألفه من حياة فينظر فيما خلفه ، ويقلب النظر فيما حوله ولا يضرب ببصره فيما يمكن أن يكون امامه فى الطريق . ذلك هو أعمى النفس وأعمى الفؤاد .

ولقد لا أحب الذى يذهب به خياله الطائش فيترك سبيل خير معروف لسبيل قد يتوهم فيه خيراً كبيراً . ومثله مثل الكلب الطماع الذى عبر النهر بقطعة من اللحم فرأى خيال اللحم فظن أن الخيال حقيقة وترك ما كان عنده لينال هذا الخيال فباء بالخسران .

أكره طريق الأول ولا أحب طريق الثانى . وانما ابغض منهما الى نفسى ذلك الذى لا يحب من الحياة مثالاً يتطاول

اليه . ولا يحب منها حالة يعمل على استبقائها . ذلك هو الطفيلى الذى يكسب لنفسه من وراء كد الغير .

كن ثائرا ان شئت ولتكن الحياة فى نظرك تافهة مرذولة فلا تريدها فى شيء ، ولا تريد أن تستبقى من شؤونها شأناً ، ولا تريد الا الهدم لما نظنه لا يصلح إلا للهدم .

وكن محافظا جامداً ان شئت . تريد أن تحيا على ما وجدت نفسك عليه . لانك ترى الخير كل الخير فى حياتك ، فتحارب كل هدام وتقف فى وجه كل جديد لانك لا ترى خيراً فى الهدم ولا ترى خيراً فى الجديد . ولكن حذار أن تكون طفيلياً تمر بك الحياة فتأخذ منها دون أن تؤدى إليها . واعلم أن حياة ذات قصد تعتمد على الفكر لهى شريفة لنسبتها للفكر والقصد والعمل . وان حياة لا قصد لها الا الانانية ولا يوجهها فكر من الأفكار لهى حياة منحطة حقيرة . واعلم أن خير العيش أن تعرف أن الحياة حق وان التقدم المعقول حق ، وانه من الواجب عليك أن تشترك بشيء من جهودك فى هذا التقدم المعقول . بذلك تدخل فى عيش الابرار ، وقد تتوصل منه إلى عيش العظماء والاطهار ، فاعمل لغيرك واعمل للتقدم دائماً

القاهرة فى ٦ من ابريل سنة ١٩٢٣

فى شم النسيم

. . . وكانت أكثر الحوانيت مغلقة فى ذلك اليوم . حتى حانوت صاحبى الحلاق الايطالى، حتى حانوت الأرمنى بائع الدخان الذى كنت أحسبه مفتوحاً فقصدت اليه لابتاع من بضاعته ما اعتدت أن أشترى . وبينما أنا أضرب فى المناهج الوسطى فى المدينة كنت أجد أحياناً جماعات من نساء الفرنجه ورجالهم ، أو ممن تشبهوا بهم من الشرقيين يتأهبون لركوب المركبات والسيارات ومعهم صناديق فيها طعام وشراب . وكانت رياح خفيفة تهب أحياناً على وجهى فترمى عليه مما كانت تحمله من خلاصة الرمل والطمى . وكنت كلما تنحيت لأنجو من أثر العفر . أو كلما أخرجت من جيبي خرقتى أمسح بها وجهى وعينى ، كنت كثيراً ما أتذكر النيل والصحراء وكلاهما مصدر لهذا التراب . وفى هذا التراب خير مصر من تبر ونبت ينعم به أهلها الزارعون ، وينعم أهلها الحاصدون .

ولكن خاطراً قد تولد فى ذهنى من اجماع أهل الأديان والأجناس المختلفة على أن يحتفلوا بيوم شم النسيم .

لقد رأيت مرة بينما كنت أسير خلف دار الأوبرا صبية من لمامى أعقاب السجاير يرتعون ويلعبون . فوقفت فى ناحية لأنظر الى مرحهم وأضحك من هذه السذاجة الرثة اللاعبة . . وبينما كانوا فى شغلهم إذ أقبل عليهم صغير من مساحى الأحذية ووضع صندوق عدته بجانب الجدار ونسى واجبه من السعى على الرزق وأخذ يلعب هو الآخر مع نظرائه اللاعبين . وبعد قليل أقبل عليهم صغير رومى ممن يتجرون بالكعك والحلوى فوضع بجانب صندوق المساح سلة تجارته وحيا الصغار بابتسامة فحيوه بأحسن منها ثم أخذ يشاطرهم أصناف اللعب من جرى ووثب . عندئذ أيقنت أن للطبيعة حكماً أقوى من حكم الأجناس وأوضاع الحياة وشؤونها . أنهم صبية نسوا أن وراءهم أعمالهم التى يكسبون منها أقواتهم . ونسوا أنهم من أجناس ولغات وديانات مختلفة . نسوا كل ذلك فجمع الصبا وشئون الصبا فيما بينهم وعلى ذلك علا صوت الطبيعة على صوت الآراء الاجتماعية التى طالما كان من أمرها أن تفرق بين الناس وطالما كان من أمرها أن تدعوهم للتنابذ والشقاق .

وكان الأمر كذلك فى شم النسيم . فقد اجتمع أهل مصر على الاحتفال به فأغلق صاحب الحلاق حانوته . وأغلق بائع الدخان الأرمنى حانوته كذلك واجتمع الفرنجه والنصارى والمسلمون واليهود فى مصر على أمر واحد : على تحية الربيع وتفريح النفس بمقدم الربيع .

وكم من صوت للطبيعة يدعو الناس للتقرب ، ولكن الأفكار الفاسدة ووساوس القلوب المعتلة طالما سعت للتفريق .

القاهرة فى ١٣ من ابريل سنة ١٩٢٣

عيد آمنـــــة

. . . أنها قطعة من النسيج الرقيق فى نحو المترين ، ولم تكن لتصلح لشىء مذكور تلك القطعة التى بقيت من جلباب لسيدة من سيدات الدار . اتفقت فتيات البيت على أن يجعلن من تلك القطعة رداء لآمنة لتلبسه فى يوم العيد .

*
* *

آمنة فتاة صغيرة فى نحو الثامنة من العمر ، قصيرة القامة ، مليئة البدن ، بسامة الوجه ، مشرقة الجبين . ولقد أبقتها أمها القروية عندنا لتترعرع فى حضانة من فى الدار فهى أصغر من فى البيت سناً وهى صديقة للبيت ولمن فى البيت . وهى ابنة للجميع وخادمة أمينة للجميع . .

ولما عامت الفتاة الصغيرة بمشروع سيداتها من أنهن يحتلن ليجعلن لها من قطعة النسيج جلباباً تتزين به فى العيد ، ولما تبينت صحة الخبر إذ رأت تفصيل الثوب وخياطته ، فاض على وجهها السرور وفاض فى نفسها النشاط . فتطوعت لكل عمل من الأعمال التى تقدر عليها . بكرت على غير عادة فأطعمت دجاج

الدار وحمامه وملأت أوعية الماء ونشطت كل النشاط على غير ما ألفنا منها ، ولم يكن لهذا من سبب إلا أنها تحققت أنها تلبس الثوب الجديد غداً ، وأنها تلبس حذاءها وتستقبل العيد .

*
* *

لقد كان الأمر فجاء العيد ، وارتدت الفتاة ثوبها القشيب ، وزينت جيدها بعقدها الخشبي ووضعت فى جيبها كل ما اقتصدت من ملّيمات لا تتجاوز عدد الأصابع . واذن لها أن تلعب فى الحارة أمام الباب .

ولم يكن فى البيت انسان إلا آمنة والشيخ الأسود العجوز. أما نحن أهل البيت فكنا ذهبنا الى المقابر وكلنا قد بلغنا من العمر ما يؤهلنا لذكر أعزاء لنا قد غابوا فى الثرى . فمنا من يذكر زوجاً ، ومنا من يذكر أماً أو أخاً أو أختاً ، ومنا من يذكر والداً أو جداً ، ومنا من يذكر اخواناً وأصدقاء .

ذهب الكل الى القبور ليذكروا فى يوم العيد موتاهم . ولقد تحمل نفسى فوق تذكار الموتى اثقالاً من شئون الحياة ومشاغلها . عدت من المقبرة وقضيت بعض ما اصطلح الناس

عليه من واجب المجاملة فى العيد ، ثم قصدت الدار لأستريح فيها فوجدت على الباب آمنة تمرح وتلعب .

وجدتها اشراقا وبهجة . وجدتها غبطة وسروراً . وجدتها وكأن جميع أعضائها الصغيرة تشير الى أن أنظر اليها فى جلبابها الملون الجميل . أما الشيخ الأسود فكان على مقعده أمام الباب . منحنيا على مسبحته ، لا يكترث بشىء إلا بدمدمة الأذكار التى قد تعود ذكرها عند ما ترتاح نفسه للعبادة .

لم تكن آمنة لتشعر بما أشعر به من حزن ولم تكن آمنة ليمر بخاطرها ما يشق على نفسى من المشاغل والواجبات . ولم تكن آمنة لتقدر من الحياة إلا أنها ظفرت بالثوب الجديد وأنها نالت من بين قريناتها حظوة وبهجة فى هذا العيد . لم تكن آمنة لتقدر إلا ذلك ، وحرام على الأيام أن تدس فى تلك القلوب الغضة إلا ما يلائمها ويريد الله أن يجعله نصيبها من غبطة وفرح .

*
* *

حرام على الأيام أن تسوق الحزن الى الصغار . وحرام على الأهل أن يشركوا أبناءهم فى أحزانهم فيصحبوهم معهم الى المقابر ، وقلوب الصغار لم تهيأ إلا للسرور والأفراح .

حرام على هؤلاء الأهل أن يصدعوا تلك الأفئدة التى لا تريد إلا أن تدق ببهجة الحياة ، فيحولوا بينها و بين بهجة الحياة . حرام أن نشرك الصغار فى آلامنا وحسب الصغار ما تعده لهم السنون والأيام من شدة ومحن .

*
* *

لقد حاولت أن أفرح بالعيد كما تفرح آمنة ولكن هيهات ! هيهات ! فقد حالت السن ، بل وقد حالت المشاغل بينى و بين سذاجة المسرة . لم يعد للذين جف ماء الفرح من قلوبهم إلا أن يستفيضوه من نفوس الفرحين . وهل أدنى الى الفرح من قلوب الصغار والآملين والأصحاء المعافين والمنعمين الذين غفلوا عن حوادث الدهر وغفلت عنهم عيون الأيام ! أن هؤلاء هم الذين تنجذب اليهم من الوجود مظاهر السرور كما تنجذب الى الحديد الكهرباء فلننتفع بخصائصهم ويجب أن ننال عنهم قسطنا من السرور، ويجب أن نمهد لهم حياة الأفراح حتى يفيض علينا شيء من بهجتهم يسرى عن نفوسنا سحائب الألم .

لم يبق لى ولا مثالى من أيام الأعياد إلا ابتسامة نأخذها مما يفيض من شفتى أمثال آمنة .

القاهرة فى ١٩ من مايو سنة ١٩٢٣

قرابين الانتخاب

كان الناس فى قديم الزمان يقدمون القرابين والضحايا رغبة فى رضاء آلهتهم ، أو لاستغفارهم من الذنوب ، أو ليجعلوا مما يقدمون وسيلة لمعرفة شيء من علم الغيب ، والوقوف على كل شيء من أسرار الالوهية وعزتها .

وقد كانت تقدم هذه القرابين وهذه الضحايا من خير ما تحرص عليه الناس من لحوم الحيوانات الغريضة ، ومن الفاكهة الطيبة ومن خير ما تنبت الأرض من بزر وحب ، ومن خير ما يحتسيه الانسان من خمر يلذ الشاربين ، ومن خير ما يتطيب به الانسان من دهن ومن خير ما يحرقه من بخور ! !

كانت الناس تجود بأغلى من هـذا وذاك . كانوا يجودون بضحايا من البشر عنـد ما يحسبون تلك الضحايا البشرية ترفع مقت آلهتهم ، وتزيل غضبهم ، وتمنع نقمتهم . وكم من حيوان أغرقه اليونان فى اليم إرضاء لآلهة البحار ! وكم من تراب خلفته النيران من عظام ولحوم ليختلط ذلك التراب بباطن الأرض زلفى لمن يسكن جوف الأرض من الآلهة ! ! وكم من دم غاص فى

التراب ليروى منه سكان الأرض الأقدسون ! ! ولكن مرت العصور على هؤلاء الأجيال من البشر فتهذبت عقولهم شيئاً فشيئاً ، ورقت نفوسهم رويداً رويداً ، وضعف سلطان الأساطير والخرافات فيهم ، فقلت الضحايا ، واستبدلت بضحايا البشر دمى وتماثيل قد تلقى فى الماء . وقد يرمى بها فى النيران فداء لتلك العذارى التى كانت الآلهة تشرب من دمائها وتنهش لحومها ! !

* * *

استبدلت كثير من التقاليد والطقوس الدينية بتقاليد وطقوس حديثة هى خير من الأولى . فأبطلت عادات ممقوتة . ونزلت أرباب عن عروشها . وأنقذت الأذهان من سلطان آلهة موهومة. على أن رباً من الأرباب لم يزل مسيطراً على أغلب نفوس البشر. لا يرتدع برادع الدين ، وقد لا ينهاه زاجر العقل ، وقد لا تزحزحه عن عرشه زلزلة العواطف المتيقظة !

أتدرى من هذا الرب القدير ؟ أتدرى من هذا المسيطر الجبار القهار ؟ ؟ . . . .

أنه رب المصلحة الشخصية . وأنه أجشع الأرباب فى طلب القرابين !

لا يقنع من اللحوم . ولا يثمل من الدماء . ولا يستمرىء الفاكهة ولا يستطيب الشراب . ولا يرغب فى طيب الدهون

أن رب المصلحة الشخصية يريد أن يتقدم له القوم فى الانتخاب بقرابين من الضمائر ! ! . .

ويل له ! . ويل لهم من رب الأرباب ! . . .

القاهرة فى ٨ من يوليه سنة ١٩٢٣

الوطن

. . . وكنت كمن نقل الى عالم آخر حين صعدت الى الباخرة، للمرة الأولى ، بعد عشر سنين لم أبرح فى أثنائها مصر ولم أعبر فى خلالها بحراً، فتذكرت أياماً خلت كابدت فيها أسفاراً وقطعت فيها أمصاراً . تذكرت عمراً كان الصق بالشباب ، ونفساً كانت اكثر قبولاً لمعانى الحياة وخيالاً كان أوسع لصور الأمل . تذكرت نفسى اذ كنت أقل تجارب فى العيش ، واكثر جرأة فى سبيله ، وأقل حملاً من تبعاته . تذكرت النفس فى الغابر ، وعرضت لها فى الحاضر ، ونظرت بين النفس اذ كانت فى ضحاها ، و بينها وقد أثقلتها التكاليف فمالت بها عن سمت الشباب . ثم حسبت أن شئون الحياة هى مصدر ما يألم منه الفؤاد . ثم حسبت أن ذلك المكان من الأرض الذى أبرحه مصدر ما يضيق به الصدر فكدت أقول للباخرة : اقلعى سريعاً ، وتوغلى على اليم وسيرى الى حيث لا أرى من شرفاتك إلا أفق الماء والسماء ، فأرسل أفكارى متواصلة فى عظمة الكون ، فلا داراً أراها تذكرنى بوحوش البشر ، ولا ضوضاء أسمعها ، ولا بغضاء أشهد

آثارها ، ولا أوراقا أقرأ فيها اللغو والباطل ، ولا وجوهاً كريهة ، ولا سحنا منحطة .

فالى بحر الظلمات ، أيتها الباخرة ، أو الى بحر الزمهرير ، أو الى منطقة يجهلها الانسان فأنسى عند هذا العالم الجديد الذى تذهبين بى اليه كل ما يسوء من الماضى ، وكل منظر مكروه من مناظر الغبراء . فلا أرى شكلاً من أشكال الشقاء ولا أرى صورة من صور الخداع والنفاق ، ولا أرى صورة من صور المذلة والخنوع ، ولا أخضع لقانون من تلك القوانين الفاسدة التى ينوء بها ظهر الأرض ، ويروجها الانسان بحماقته وظلمه .

ولكن الباخرة لم تكد تتحرك حتى ضعفت فى نفسى سورة الغضب ، ثم أخذت تخف قليلاً قليلاً مع سير السفين . ولما كاد يختفى عن ناظرى مرأى الشاطىء وما عليه ومن عليه من الأهل والاخوان خمدت السورة ، وخبت النار وحل محلها فى القلب نسيم الحنين .

أقول للباخرة عندئذ سيرى فى رعاية الله ، أيتها الباخرة ثم عودى بى الى أرض أحفظ منها صورة ابتسامة مشرقة ، واعى

منها صدى دعوات خالصة ، وأعرف لى فيها اخوانًا وأحباء وأصيب من جهود عاملها خيراً ، وأرعى فيها صبية وصغاراً ، وأعالج فيها أملاً عزيزاً .

سيرى أيتها الباخرة ثم عودى بى الى أرض الأحباء . حيا الله مصر . حيا الله الوطن .

البحر فى ٢٨ من يونيه سنة ١٩٢٣

الاكروبوليس

وقفة بالحصن المقدس

من نحو ثمانية وخمسين حولاً ، جاء إلى هذه الهضبة العالية التى تشرف من الجنوب على مدينة آثينا ، رجل كان قد بلغ من العمر وقتئذ سن الرجولة ، محيط بتاريخ البشر ، عالم بتطور المدنيات ، فوقف ساعة على سطحها بين معابدها البالية التى شهدت نحو خمسة وعشرين قرناً خلت وقفة أنزلت على نفسه كلاما صافيا ، نقياً ، نيراً ، أشبه بكلام المأخوذين المسبحين بجلال الكون وعظمة الله .

اسم هذا الرجل رينان وكان من اكابر البشر ولقد تضمن قوله عن معابد « الاكروبوليس » نوعاً من التمجيد لذوق الاغريق وفنهم وعلمهم وتاريخهم حتى صغر عنده حيال عبقرية اليونان كل أثر من آثار الشعوب الأخرى ، وقل فى نظره امامها كل جليل من مجهود القرائح .

جئت إلى هذه الصخرة ولست متدرعاً بما تدرع به رينان من العلم ، ولا أملك قلماً كقلمه يسيل بالعذوبة والبيان . ولكنى جئت اليها بقلب هيأته الظروف لأن يحس بما يحس به فؤاد

صحيح . لأن يحس المؤثرين الخالدين : الجمال والألم

أسجل اليوم بعض ما مر بنفسى عند زيارة تلك المعابد ، والإمعان فى دقائقها ، خضوعاً لما توحيه إلى الخاطر عبر التاريخ من غير حرص على ما يحرص عليه الواصفون ، ومن غير عناية خاصة بما يعنى بذكره المؤرخون. وان مايسجله هذا القلم لضرب من التصوير لبعض حالات النفس عند ما يسمو بها الى عالم آخر معنى من معانى العظمة والكمال .

الجمال المهمل

اثينا فى ٣ يوليه سنة ١٩٢٣

. . . وبكرت إلى «الأكروبوليس» فلما بلغت باب الجنوب اندفعت بسرعة لست أدرى لها سبباً ثم أخذت أسير رويداً رويداً فى طريق مصعدة تنبت عليها أعشاب بريّة أزهر بعضها وعلى جانبى الطريق شجيرات من الصنوبر والزيتون قصيرة هزيلة مصفرة ، وقد يرى الناظر قطعاً كثيرة من أعمدة ، وحجارة وصفائح من المرمر ، على بعضها نقوش وكتابة وقد ألقيت هذه البقايا جميعاً على الطريق هملاً من غير نظام . وبينما كنت اتلفت

تارة يمنة ، وتارة يسرة ، وتارة للامام ، اذ قيد البصر رأس عمود رفيع ملق بين هذه الأحجار نحتت عليه أوراق نوع من نبات الشوك . جلست عند هذه القطعة الحجرية الصغيرة التى كنت أستطيع أن أرفعها بيدى من غير جهد . وفى هذه الجلسة كنت أتصور كل ما يستطيع أن يتصوره الإنسان من معانى الحسن ثم أسلمت نفسى مسحوراً بجمال هذه القطعة التى قد يمر أمامها السائر من غير أن يتنبه اليها وهكذا الحال فى كل جمال مهمل .

كنت أقول فى نفسى كيف لا يعنى القوم بهذه القطعة فلا يمنعون عنها مس الرياح ، ولا يحمونها من صيب السماء ، ولا يحولون بينها وبين قيظ الصيف ، ولا يضنون بها على عوادى الدهر والغير ؟ ! ثم كنت أعود الى نفسى وأحاورها فأقول أكان اسلامى لجمال هذا الحجر المنحوت ضرباً من التأثر بما كان يلقى فى روعى من جمال فن اليونان ، أم كان فهماً صحيحاً للحسن قذف الله به فى قلبى بعد عمر لم أعرف فيه نفسى مفتوناً بالجمال ؟ ! وبينما كنت أتخيل صورة الأوراق على هذه القطعة أطول مما هى وبينما كنت أتخيلها أقصر مما هى ، وبينما كان خيالى يمد فى انحاء هذه القطعة طولاً وعرضاً ويتعرض أوراقها صغيرة وكبيرة ، قليلة

وكثيرة ، كان كل ما يهيئه الخيال حقيراً إذا قيس بما هى عليه فى الحقيقة والواقع وكأنى كنت أقرأ عليها كلمتين صافيتين من كل ابهام : البساطة والجمال .

*
* *

ما الجمال ؟ وماذا أقول فى الجمال !

الجمال خطيب صامت لا يرغب أن يتحدث الغير عنه إذ فى صمته كل فصاحة وفى سكوته كل بيان .

الجمال نسب وأوزان قد تحسه النفس أحياناً بوساطة العين بعد خلوصه مما يعلق به من مادة واضواء ، وقد تسمعه النفس أحياناً بوساطة الأذن دون أن يلبس أحرفاً أو تكون له لغة تحفظ فى المعجمات .

الجمال متكبر ، قاهر ، متكبر لانه يجل عن أن يقدمه للنفوس أحد فهو يعرف نفسه بنفسه . قاهر لانه يغلب الأنفس القوية على أمرها فيوقع فى أسره من شاء ، ويتخير لرقه من شاء .

الجمال كالله وكالقوى الخفية من حيث انها لا تعرف بذواتها ، ولكنها تعرف بآثارها .

الجمال صحراء واسعة لا حدود لها يضل فيها السارى من أى ناحية سار ولكنه أينما سار وجد فيه جنات ونعيماً .

الجمال كتاب عظيم وضعه مزين السموات والأرض القادر على كل شىء .

الجمال ضرب من الأدب فهو رواية طويلة لا تنتهى فصولها ولا يتعب ممثلها ، ولا يمل شاهدها .

الجمال ضرب من المنطق والمعقول مقدماته العين ، أقيسته الفؤاد ، ونتائجه الوجد والهيام .

الجمال عبد صالح لله فلا يطلب اليك فى حضرته الا أن تسبح لمولاه .

الجمال معنى طلق لا يريد أن يحد ولا يريد أن يعرف لأن الحدود والتعاريف من سفاسف الأمور ، والجمال لا يتصل بهذه السفاسف .

الجمال معرفة والله أعرف المعارف ،

وبينما كنت مغرقاً فى شدة الاعجاب بهذا الفن، تاركاً لذاكرتى أحياناً أن تتمثل بعض أوان من المرمر أخرجت من مصر أخيراً من مقابر الملوك ، وحبست فى دار الآثار فى قفص من زجاج ،

بينما أنا كذلك أنعم النفس بمقارنة الجمالين وأتخيل شيئا رأيته على ضفاف النيل ، وامعن النظر فى شىء أراه على جانب صخرة (الاكروبوليس) إذاً قبل الحارس الأعرج وكان ينبغى أن أشعر بتقدمه من بعد لما يحدثه صوت قدمه وهو يمر بتثاقل على حصى المشى لولا إغراقى فى ضرب من الخيال .

ضحك الحارس فى وجهى ودمدم بكلمات يونانية فهمت منها عبارة الجمال وأشار بالانصراف . تباً لك أيها الحارس ، لقد قطعت على عبادة حارة خالصة .

القاهرة فى ٣ من اغسطس سنة ١٩٢٣

وقفة بالحصن المقدس

العرق دساس

خرجت وقد قنعت من زيارة الأمس بالاستمتاع بدقة الرسم المنحوت على رأس العمود الملقى بين الأحجار على جانب أحد طريق «الاكروبولس» . وكان لتلك الزيارة أثر رغبنى فى الفن والحسن حتى أخذنى هيام وولوع بالجمال . آليت على نفسى بعد ذلك اليوم أن أتجمل فقلت والله لاقصرن شاربى ، وأرجلن شعرى ، وأعطرن لباسى . ووالله لاجرؤن فى سبيل التأنق فاثبت على صدرى زهرة غضة ، وأزين أظافرى ، وأضع فى أصبعى خاتماً يتلألأ نوره ، وأرسل على صدرى سلسلة من الذهب البراق وأمشى بوطء خفيف عند ما يحسن الوطء الخفيف ، وأسير مرحاً عند ما يحسن السير مرحاً .

لا أريد أن يكون شفيعى فى سبيل التأنق وفرة مال ، فالمال حقير . ولا أريد أن يكون شفيعى فى سبيله علماً ، ففى العلم باطل وغرور . ولا أريد أن يكون شفيعى فى سبيله جاهاً وحسباً فالمرء ابن نفسه وكل امرئ عن نفسه مسئول . حتى ولا أريد أن

يكون شفيعى فى سبيله ملكاً فالملك لله جميعا . انما رضيت أن يكون شفيعى فى سبيله عبوديتى وخضوعى لرب الحسن والجمال أعبده مخلصاً لوجهه العبادة ، ولقد كان من عبادة آلهة الغابرين منذ القدم أن يتشبه الانسان ببعض أوصافها .

أخذتنى تلك النشوة ، بل أخذتنى تلك الجذبة وأخذت أقول فى نفسى : الجمال فضيلة ومن الخير أن يعمل الإنسان الحيلة ليتصل بجميع الفضائل . ثم شرعت فى الذهاب إلى حانوت لابتاع منه بعض ما استعين به على التجمل والتأنق .

طلبت الى صاحب الحانوت أن يعرض على أثمن ما عنده من العصى دون أن يحسب للاتفاق حساباً ، وبينما هو يعرض على أرشقها وأظرفها شكلاً إذ حانت منى التفاتة إلى عصا غليظة خلت من الحسن ولكن ملامح البأس والمتانة تبدو عليها ، فلم أرد البصر عنها حتى انتزعتها من بين أخواتها ، ثم عجمت عودها فهززتها بعنف واتكأت عليها بقوة ، ثم مثلت عندى فضيلة المتانة . وما أطيب المتانة فى الجسم ، وفى الخلق ، وفى العصا .

*
* *

عفوا يا ربة الحسن إذا لم أف بالعهد فحنثت فى حلفى وعدلت عن سبيلك إلى سبيل رب القوة .

عفواً يا ربة الحسن فالعرق دساس فانى من بلد شيدت فيه الاهرام واكبر اهله الأقدمون البأس قبل أن يكبروا الجمال .

اغريتنى يا ربة الحسن فكدت أغفل لحظة عن رب القوة فاما توجهت إلى أنظاره واخترقت حجب خمسين قرناً مضت ونادانى من خلف معبد من تلك المعابد القديمة القائمة على ضفاف النيل أبت اليه تائباً ، نادماً ، وانتزعت العصا المتينة رمزاً لتقدير القوة وإجلال المتانة ، ثم هرولت أضرب بها فى مناهج أثينا الجميلة ذاكراً اسم الله القوى الدائم قبل اسمك الجميل .

اثينا فى ٤ من يوليو سنة ١٩٢٣

الله اكبر

قصدت إلى سطح الصخرة حيث بقية هيا كل الآلهة .

لقيني دليل فرددته إذ أحسبنى لست أحتاج إلى دليل فاذا بشيخ هرم، رث البزة، كريه المنظر، قد اقترب منى وخاطبنى بلسان فرنسى تنسحب عبارته السقيمة متعثرة بين فكين ارتخت عضلاتهما ووهنت أدواتهما ففهمت منه أنه يريد إرشادى ، وأنه لن يلح ولن يغلو فى الأجر وأنه يفخر بنفسه فيحسب أنه يعلم ما لا يعلمون .

أخذتنى رأفة بذلك الشيخ الفانى ، وقلت لعل الخير عند هؤلاء الشيوخ ، فأومأت إليه بالقول فتقدم متوكئاً ، متباطئاً فى صعوده ، حذراً فى خطاه ، وكنت أحوطه بنظراتى حرصاً عليه من السقوط . فلما جئنا إلى مكان يشرف على هضاب أثينا ومنازلها أشار الدليل الشيخ بعصاه إلى هضبة وقال هنا على هذه الهضبة من نحو ثلاثة وعشرين قرناً كان يقف « ذيموستينس » خطيباً بين أهل أثينا ثم نظر إلى وقال : أتدرى من « ذيموستينس » ؟ فتجاهلت فقال كان فصيحاً كبيراً ، فقلت وكم فى الناس اليوم

ياشيخ من طلق اللسان فصيح ! فقال أجل ولكنهم يخدمون الباطل بفصاحتهم . أما « ذيموستينس » فكان يخدم الحق بفصاحته.

ثم أشار بعصاه إلى هضبة أخرى وقال وعلى هذه الهضبة كان مجلس قضاة « أثينا » ليحكموا بين الناس بالعدل تحت سماء الله وعلى مرأى من تمثال رب العدل . ثم استطرد الشيخ من أمر القضاة فى «أثينا» البائدة إلى القدح فى قضاة هذا الزمان وشئون هذا الزمان ، وصبرت على شرحه بل صبرت على تشاؤمه حتى بلغنا معبد البتول « أثينا » ربة الحكمة .

لا أريد أن أتحدث بما تحدث به الدليل «ديمترى» من خطأ فى التاريخ أو صواب . ولا أريد أن أذكر لك كيف استحال هيكل الربة البتول « أثينا » إلى كنيسة للبتول مريم بعد نحو اثنى عشر قرناً من تشييده . ولا أريد أن أذكر لك كيف استحال هذا المعبد بعد نحو التسعة عشر قرناً من تشييده إلى مخزن لذخائر الترك ومعدات قتالهم . ولا أريد أن أذكر لك ما أدى إليه حصار أهل البندقية من تخريب هذا الأثر البديع وتحطيمه . ولا أريد أن أحدثك بما حمله لورد الانجليز إلى بلاده من كنوز هذا المعبد فى القرن التاسع عشر . على أننى أعيد.

خواتم الجمل التى كان يختم بها « ديمترى » الدليل شرحه وحديثه : « آه لو قدر القساوسة الفن فلم يحولوا ذلك المعبد إلى كنيسة . وآه لو فهم الترك جمال الفن فلم يحولوا ذلك المعبد إلى دار لذخائرهم أو دار لربهم ! وآه لو أخطأت قذائف المتحاربين هـذه الآثار المقدسة فلم يهدم منها ما تهدم ! وآه لو أبقت اللوردات فى تلك المعابد كنوزها وآثارها ! ثم آه لو احترم الناس نتائج العبقريات ومجهود العقول ! » جمل فيها حسرة وعبرة .

أما جمال هذا المعبد ، وروعة هذه البقايا والآثار ، ونظام هذه العمد ، ونسق تلك النسب ، فلا أحدثك به مهما أطرقت إلى ، ورغبت فى قولى . فلا القلم قادر على ضبط تصوير هذه الدقائق ، ولا اذنك قادرة على وعى ذلك الضرب من الحسن ، إنما هى عينك ، وإنما هو فؤادك ، فأقبل إلى وقف معى وقفة « بالاكروبوليس » ثم حقق النظر يتحرك الفؤاد .

ولكن شيئاً يبقى بالمعبد من اثر النصارى . ولكن شيئاً يبقى بالمعبد من اثر المسلمين ! آلهة حلت الدار اثر آلهة . وزمان استخلف على هذه الآثار إثر زمان . وأحداث وغير تمر على تلك الأحجار والانقاض خلف أحداث وغير . ودول تأتى وأخرى

تدول . فمن رب الأرباب ومن رب المكان والزمان ، ومن محدث الأحداث ومغير الغير ومعز الدول ومذل الملوك والقرى ؟

سبحانه سبحانه ما اكبر شأنه .

عفواً أيها الاله الأعظم وغفراناً إذا أنا بقيت ساعة بهذا المعبد أناجي ربته الأولى ، وأتمثل قروناً خلت ومدنيات عظمت .

إنكم معشر الآلهة تتعالون عن التعدد فأنتم واحد وإن تعددت أسماؤكم ، ووحدة وإن تعددت صفاتكم . وفي ذكر أحدكم ذكر للآخر كما يعلم الراسخون .

لقد كنتم دهوراً وكانت عروشكم قمم هذه الجبال ، ومعابدكم من مرمر مسنون ، وفي خدامكم عذارى يشرق جمالهن حول تلك المعابد ، وينتشر عطرهن حول ما يحرق من بخور .

كنتم تخاطبون الناس على قدر عقولهم أيها الآلهة يوم كانت عقول البشر أقل مراناً على فهم المعاني العالية ، فتصورون أنفسكم في حدود تصوراتهم ، وتشكلون عظمتكم بأشكال خصالهم ، فتقتتلون مثلما يقتتل الإنسان ، وتغضبون مثلما يغضب ، وتلعبون مثلما يلعب ، وتمكرون مثلما يمكر . اختلطتم بأهل الأرض ، وكنتم تعيشون بينهم ، وتتبادلون وإياهم المشاعر ، وكنتم ضيوفاً

عندهم وكانوا عيالاً عليكم وكانت حياة البشر حقاً مقدساً .

ولكنكم قدرتم أيها الآلهة أن عقول الناس قد مرنت، وأن بصائرهم قد صفت ، وأن قلوبهم قد رقت فتحولتم فى الأذهان إلى آلهة ذوات معان دقيقة وصفات لطيفة لم يفهمها الناس حق فهمها فتباعدت المسافة حينئذ بينكم وبين نفوس الناس . ثم تحولتم بعد ذلك إلى ربوبية واحدة ومعنى أوسع وقوة أشمل . كانت بيوتكم هيا كل ، وكانت كنائس ، وكانت مساجد وان تلك الهيا كل التى شادتها يد الانسان ستزول ، وان تلك الكنائس التى خطتها يد الانسان ستزول ، وان تلك المساجد التى دعمتها يد الانسان ستزول . ولكن عروشكم الأولى القائمة على جلال الكون وجمال الطبيعة باقية لا تزول

والآن أجلس فى بيت من بيوتك يا ربة الحكمة فلا هو بالهيكل، ولا هو بالكنيسة ، ولا هو بالمسجد ولكنه بيت يحفظه التاريخ ويحوطه العلم وتحترمه الحكومات ، وتحج إليه العلماء ، ويطوف به أهل الفن ، ويذكر فى عرصاته الذاكرون كيف تتغير الأحوال وكيف تستحيل المدنيات وكيف يفهم الجمال !

تحولوا ما شئتم أيها الآلهة حسبما تجدون من ظروف الأرض

والزمان واستعداد العقول ، ولتسعد بكم أحزابكم فلقد تبينت ربى وعرفت إلهى .

هو رب أبى مذ كنت فى صلبه ، ورب أمى مذ تكونت فى أحشائها ، هو رب كما تعلمون واسع باسط . له بيت من حجر لا نقوش عليه كبيوتكم ولا فن فيه . لا يضره إذا فتت بيته واستحال رمالا تذروها رياح الصحراء الملتهبة . ولا يفرحه ان سبكت له مدنيات الدنيا وفنونها لأن كل شىء ما خلاه باطل فهو غنى بنفسه وهو قانع من المعابد والبيوت بكتلة من الحجر الأسود لا نسق فيها ولا جمال .

ربى ، يا ربة الدار ، بدوى الطبع يقنع من الأرض بالرمل الواسع ، ومن السماء بكواكبها وغيثها وحسبه الشعور بوفزة العزة والكرامة .

ذلك هو ربنا ، يا ربة الدار . ذلك هو رب الكعبة الذى نودى اسمه بعد عشرين قرناً مضت على هيكلك بين جدرانه فقال قائلنا حينئذ الله أكبر ، الله أكبر . حى على الفلاح .

أثينا فى ٧ من يوليه سنة ١٩٢٣

لقاء الوطن

... وحينما كانت تسير بنا السفينة فى الليل حيث لا نرى إلا نجوم السماء ، والأفق مظلم من جميع النواحى التى تحيط بالفلك يممت نحو ربان الباخرة حيث كان فى غرفة عمله فحييته وقلت أنحن الآن فى منطقة مصرية أيها الربان ؟ فقال نعم فقلت ومتي ان شاء الله نرسى على بر مصر ؟ قال فى ضحى الغد . عندئذ تولانى ضرب من السرور ، وسرى الى فؤادى نوع من الاطمئنان ولبست درعاً من العزة ، فاشعلت غليونى ثم أخذت أسير على ظهر الباخرة ، وأخرجت من محفظة أوراقى كتباً وردت الى وأنا فى بلاد الغربة من أهل وأصدقاء ، كتبا كنت هممت بتمزيقها وطرحها بعد أن علمت ما بها إلا أن عاطفة حالت بينى وبين أن أقبر تلك الرسائل فى أرض غريبة نائية فلما علمت أننى أتنفس من هواء مصر ، وتظلنى سماؤها ، ويحملنى ماؤها ، ألقيت فى اليم بتلك الكتب التى قدرت أن لا فائدة من حملها وقلت فى نفسى اليوم لاضرار فالآن تزول حروفها فى ماء الوطن وتنحلل مادتها فى حيزه .

ثم نزلت الى غرفة نومى وأوصيت الخادم أن يوقظنى مبكراً حتى أتخير مكانا على ظهر السفينة أستطيع أن أعتزل فيه لأتبين منه أرض مصر من بعيد وقلما يقدر النظر على تبينها . ثم ألقيت بنفسى على مضجعى ولكن خواطر كانت تضطرب فى رأسى حالت بينى و بين نعاس كنت فى حاجة اليه . ثم غلبنى النعاس أخيراً ثم أوقظت وقلما أردت . ثم صعدت الى ظهر الباخرة وشخصت ببصرى الى حيث يمكن أن يلوح الشاطىء وكان الفلك يسير. وكأن الفلك كان سيره بطيئاً. ومن بعيد بعيد تبينت خطاً طويلاً قاتماً يتجلى فى الأفق. تبينت تلك الأرض التى طالما قدرت لها جميلاً . وتجاوزت لها عن ذنوب وسيئات ، فنهضت واقفاً ومددت ذراعى الى حيث أرى ذلك الشبح المحبوب وقلت سلاماً وتحية ورحمة من الله عليك مصر أمنا الرءوم . لوأن الله قضى على الساعة بالموت للقيته مستريحاً وأغمضت عينى على شعاع من النور يفيض من شمسك ، ولفظت آخر زفير يحمله الصدر من هوائك . ولوكان للسانى أن ينطق وقتئذ بكلمة لكانت دعوة لك صالحة ختامها الحمد لله رب العالمين . ثم انتقلت من مكانى الى مكان آخر حيث أحضر لى قلم وقرطاس فكتبت هذه الكلمات « أحب مصر لأن كل ما يتصل بى من خير إنما

هو من فضلها وبركاتها . أحب مصر لأنى أحب آمالاً تولدت فى منها، ولأنى أحب خيراً يوحيه الى مافيها من شر، ولأنى احب صالحاً يوحيه الى ما فيها من فاسد، ولأنى أدرك فيها نقصاً يحبب الى الكمال.

أحب مصر لأنى أراها مزرعة واسعة ضعفت أرضها وهرم شجرها المثمر، وأساءت الحشائش المفسدة الى نبتها الطيب فلعلى أصلح فيها باعاً من الأرض ، ولعلى أعين فيها نبتة نافعة على النماء ، ولعلى أستمتع يوماً فيها بثمرة ناضجة . أحب مصر مستودع عظام ودماء أنا جزء منها ، ومستودع تاريخ وأحلام لى فى جميعها نصيب، ومستودع قلوب تحنو على وتتصل دقاتها بدقات فؤادى».

ثم أحضر لى الخادم طعاماً وبعد أن طعمت صعدت مرة أخرى على ظهر الباخرة . تبينت عن بعد دور الاسكندرية العالية فقلت : « سلام عليك أيتها الدور ما دام فى اهليك من يتقى الله فى حق هذه البلاد . سلام عليك ما ظلت فيك نفوس ترعى باخلاص صالح هذا الوطن »

ثم أفلتت دمعة من عينى من أثر الانفعال فنزلت الى غرفتى لأهيئ متاعى ، وانزل الى البر والقى أرض الوطن .

القاهرة فى ١٠ من سبتمبر سنة ١٩٢٣

لعـــام ١٩٢٤

فى مقدم هذا العام ، انتقلت من دارى القديمة التى كنت أسكنها الى تلك الدار التى أسكنها الآن . وبينما كنت أعمل ليلاً فى ترتيب أمتعتى ، وإخراج كتبى ، والصور التى أزين بها الحوائط من حقائبها وصناديقها إذ أخرجت من أحد تلك الصناديق صورتين تعودت أن أحلهما فى غرفتى مكاناً يكثر عليه ترداد النظر .

كانت إحدى الصورتين لعزيز قضى فى شرخ الشباب ، فكنت أخرجها من قاع الصندوق كأنى كنت أخرج تذكاراً ماضياً من أعماق القبور . وكانت الصورة الأخرى لعزيز بعيد ما زال حياً ، تشخصه مذ كان فى ربيع العمر باسماً بهياً .

أخذت الصورتين برفق ، ونظرت إليهما نظرة دعت الى نفسى عظة وحسرة ، وامتزجت ذكراهما فى الخاطر بانتقالى من دار الى دار ، بل امتزجت ذكراهما فى الخاطر بانتقالى فى العمر من عام الى عام . ثم تغلغلت تلك الذكريات المختلفة من حبيب مات ، وعام فات ، وعزيز غيرته الاحداث والأوقات ! !

تغلغلت فى النفس تلك الذكريات فهاجت الخيال ، والعواطف والفكر . حول ذلك الدهر وحول ما يسوق من عبر .

*
* *

لقد أفنى الدهر صاحب الصورة الأولى فاستحال الى ترابا وستنسى يوماً ما من النفوس ذكراه .

ولقد حول الدهر بعد عشر سنين صاحب الصورة الأخرى من حال الى حال . نخط على الجبين خطوطاً لم تكن عليها من قبل ورسم على تلك الخدود ثنيات . وانضب من ذلك المحيا ينبوعاً من ينابيع البسمات . وأبدل سلوكاً من الشعر الذهبي بسلوك من الفضة . وأسكن ذلك الرأس فكراً ومشاغل لم تكن لتسكن ذلك الرأس الجميل فى الصبا . واسكن ذلك الفؤاد الطيب آلاماً ما أشدها على ذلك الفؤاد الحساس . وأزال من ذلك القد المياس نشاطاً وخفة ما أحوج الجسوم إليها فى سبيل الحياة .

*
* *

تذكرت ما أحدثه الزمن فى الشخصين ، فكررت النظر فى الصورتين ، ولكنهما على ما كانتا عليه من نيف وعشر سنين ! .

ما زال رسم البسمات على تلك الشفاه بادياً وما زالت الأعين فيهما لا تغمض عن مرأى هذا الوجود !

عندئذ تخيلت الزمن ضعيفا بنفسه لا يقوى على سرعة تغيير الجماد

عندئذ ذكرت أن أقرب ما تصل اليه يد الزمن هى الحياة والأحياء والنفس ومن بالنفس ومظاهرها يعيشون .

عندئذ حقرت الزمن لضعفه أمام المادة .

وعندئذ أكبرت الزمن لقوته وقدرته على الأرواح والنفوس.

عندئذ استقسيت الزمن لتحويله الصدح ندباً ، ولتحويله البسمات دموعاً وأنات ، ولتحويله النشاط وهناً ، والوهن فناء .

عندئذ حمدت الزمن فقد يحدث الآلام وقد ينسى الآلام .

*
* *

أصغرت شأن الزمن ، وأكبرته ، واستقسيته وشكرته . وكانت تلك العواطف والأحكام المتناقضة تترع نفسى ، وتفور فى رأسى ، فتدفعنى الى نزعات ونزوات وتطوف علىّ بخيالات حتى رغبت فى أن أتخلص من تذكر الزمن وشرعت فى أن أخرج

ولو برهة صغيرة عن سلطانه الحقير الكبير ، القاسى المشكور .
نخطر ببالى أن أرتدى ملابسى واخرج ليلاً واعين الناس غافلة لأقصد على غير ما ألفت داراً من تلك الدور وهناك أشرب ؛ وأطرب ، وألهو وألعب. فالسنون تطوى ونحن عن حياتنا غافلون، والعمر يتقدم ونحن عن انفسنا ساهون

هممت ولكن . . . ولكن ما كدت أهم حتى عاقتنى العوائق وأقربها منى ضعف الجسم ويقظة الضمير .

فيا معشر الشباب احرصوا على حسن استخدام الزمن ولا تتركوه يمر دون أن تنالوا منه ما قد ينيله من رقى فى النفس وسرور . واعلموا أن أطيب آثار الدهر فى العيش ما يتصل بنفوس الأحياء من صفو ، وحب ، وصفاء .

القاهرة فى ١٢ من يناير سنة ١٩٢٤

السماء

ترسل السماء أضواء فى الليل والنهار . وطالما أحيت السماء الخلائق بأنوارها وحرارتها . وطالما هدت كواكب السماء سفناً ضالة الى بر النجاة . وطالما أمدت السماء عواطف البشر بخير ألوان الشعر والخيال ، فأسكنوا آلهتهم أفخم ما تخيلوه فى السماء من أبراج وطبقات ، ثم نقلوا على الأرض أمثلة مما تصوروه ، فعملت الفنون إذ ذاك شئونها : فشيدت المعابد الضخمة ، والبيع الزاهرة ، والمساجد العامرة .

إن الزهور والحقول لتنتعش انتعاشاً عند ما تشرق عليها الشمس من سماواتها فى الصباح . وأن أرواح الأفراد والأمم لتنتعش كذلك إذا أشرقت عليها شموس المثل السامية .

*
* *

المثل الاسمى هو سماء صافية تستخرج البصيرة من كبدها كل خير ، بل هو أفق رفيع يستنهض العواطف اليه ، فتتحرك النفس دائماً للرقى والعروج ، بل هو معنى إذا امتلأت به نفس الإنسان استصغر أكثر ما يشغل الناس من سفاسف الأمور . بل هو إشراق ساطع كابتسامة الحور العين يملأ لألاؤه النفس

غبطة وارتياحاً ، بل هو ذلك الرقيب القوى الذى يسدد الخطا ويوفق الفعال الى حيث يريد الخير والحق أن تكون تلك الخطا وتلك الفعـال . ذلك هو المثل الأسمى . ذلك هو سماء النفوس الصافية .

* * *

فى تلك السماء المعنوية — سماء المثل الأسمى — كواكب تهتدى بها النفوس الرشيدة التى تعلم كيف تهتدى بها كما يهتدى الملاح بنجوم السماء وهو يسير فى البحر الزاخر. فيها كواكب للعدل ، وللرحمة ، وللمحبة ، وللعطف ، وللكرامة ، وللخير ، وللحق وكم فيها من كواكب الخصال الحميدة ، والشيم الكريمة .

وفى تلك السماء ترسم أشباح الأنبياء والقديسين والعظماء والصالحين من الناس والأبرار والصابرين والشاكرين والذاكرين. كلهم كواكب وفى تذكرهم نور يهتدى به البشر .

فليجتهد كل إنسان فى أن يصل بين حياته الأرضية المادية بتلك السماء المعنوية . وليربط بسبب بين عالم الحقيقة الحاصلة وبين عالم الخيال الجميل المنتظر ، وليعلم أن الحياة الدنيا لا تطيب إلا إذا مزجت بحياة روحية عالية مداها المحبة بين الناس ، وغرسها السلام ، وأفقها السماء .

القاهرة فى ٢٩ من فبراير سنة ١٩٢٤

الموت الساخر

« انجل » رجل نحيف الجسم . ممتقع اللون فقير الثياب له عينان واسعتان يسفلان جبهة ظاهرة العظم . ويعلوان وجنتين بارزتين . له شاربان رقيقان طويلان مرتفعان وإذا ابتسم تنفرج شفتاه عن أسنان ناصعة البياض ، قوية حسنة الرص والترتيب . وخلاصة القول فى وصفه أنه لطوله ونحفه وقلة لحمه ودهنه وابتسامته الخاصة أدنى الى صورة تلك الهياكل العظمية التى يخلصها الموت من الإنسان بعد زمن قليل .

*
* *

طالما كنت ألقى « انجل » فى حانوت الحلاق . وطالما كان يقص على سوء حاله ، مع كثرة عياله وقلة أشغاله . وكثيراً ما كان يثور فى حديثه على نظم الحياة . وكثيراً ما كان يسب الفقر ، وكثيراً ما كان يسخر من الغنى الشحيح .

*
* *

مر زمن طويل لم أر فيه وجه صاحبي هذا ولم تسمع فيه أذنى صخبه على الدنيا ، وأنينه من أهلها ، وبينما كنت سائراً ذات يوم

فى إحدى تلك المناهج الكبرى إذ وصل الىّ صوت استوقفنى فإذا بصاحب الصوت هو « انجل » يبسم لى ، ويمد الى يده وكنت أكاد أنكر صاحبي القديم لأنه أصبح على غير ما كان عليه من صورة ومسوح .

* * *

أصبح أنيق الثياب بعد أن كان رثها . أصبح عطر الرائحة نظيفاً . أصبح متختما بالذهب . أصبح مترفاً بالحلى . أصبح وجهه مضيئاً بعد ظلمة . أصبح صوته مليئاً بعد تهدج . أصبح «انجل» غير ما ألفت ، وأصبح « انجل » غير ما عرفت . حيانى باسما ، وصافحنى وثيقاً ، وكلمنى متلطفاً رقيقاً ، وكل ذلك وأنا أنظر اليه ما بين تحديق وترنيق ، وكأنى كنت مذهولاً من مظهر للرغد والنعمة ما كنت أظن أن ألقى الرجل عليهما فى يوم من الأيام .

* * *

ثم مضى « انجل » فى سبيله ، ومضيت أنا الآخر فى سبيلى أفكر فى أمر هـذا الانقلاب الغريب حتى لقيت رجلاً يعرفه فحادثته فى أمر ما رأيت فقص على الأمر وفسر لى اللغز :

ذلك أنه كان « لأنجل » عم بخيل جمع مالاً كثيراً ولم يستمتع

به فى شىء ولم يكن له وارث غير « انجل » فمات العم وأحيا موته ذلك الذى كان بالأمس حيا ميتاَ .

عندئذ مر بخاطرى شىء مما يقوله الاشتراكيون فى المال ومخلفى الثروات والأموال . وعندئذ فهمت السر فى نعمة صاحبى . وعندئذ تجلت لى معنى تلك الابتسامة التى لقينى بها فى حاله الجديد . ورأيت فى صورتها المتصلة بهيكله النحيف ، ووجهه العظمى ، ابتسامة الموت الساخر ممن لغيرهم يجمعون . وعندئذ قدرت معنى الأثر الاسلامى القائل « ينادى مناد كل ليلة فيقول اللهم اجعل لمنفق خلفاً ، ولممسك تلفاً » ثم ترحمت على من قال

وان أشد الناس فى الحشر حسرة
لمورث مال غيره وهو كاسبه

القاهرة فى ٢٥ من ابريل سنة ١٩٢٤

عائلة

الدار فى فينا ، فى الحى العاشر ، وهو حى تتعدد فيه المعامل وفيه مدرسة للهندسة الصناعية ، وفيه يسكن اكثر من يعيشون بعرق الجبين

قصدت الى هذا الحى لالحق تلميذاً من أهلى فى تلك المدرسة فسرت فى بعض سبله وطفت مع نفر من شبابنا الموفق فى بعض نواحيه لاتخير مسكناً للطالب الذى أتعهد بعض شؤونه واهتدينا أخيراً إلى الدار .

الدار كبيرة ذات طبقات خمس ، وفى كل طبقة سبعة أقسام والعائلة التى رغبنا فى استئجار غرفة عندها تسكن الطابق الرابع . وفى ذلك القسم الذى تسكنه يجد الداخل بهواً صغيراً تشغله أدوات لمعالجة الطعام . ويجد عن يساره غرفة صغيرة فيها سرير من خشب ، وخزانة ملابس ومنضدة ، وبعض مقاعد . ويجد عن يمينه غرفة أخرى أكبر من الأولى فيها سريران كبيران وبجانبهما سرير صغير . وفى إحدى زوايا تلك الغرفة معزف (بيانو) ، وفى زاوية اخرى خزانة للملابس . وحوائط

الغرف مغطاة بالورق المزركش وأرضها من خشب مصقول ناعم، وفى السقف ثريات جميلة للكهرباء . تلك هى الدار وأثاثها ، أما ساكنوها فعامل خباز يناهز الخمسين من العمر وزوجته وولدهما الطفل (ماركس) وهو فى نحو الثانية عشرة وكلبهم (وولف) .

دخلنا تلك الدار قبيل الظهر وكنا أربعة فوجدنا الرجل مشمراً مجداً فى تنظيفها . وبعد تبادل التحية سأله أحدنا أهنا غرفة لطالب ؟ فقال نعم وفتح باب الغرفة الصغيرة فتفقدنا أثاثها . ثم سأله سائلنا وما أجر تلك الغرفة ؟ قال الرجل علم ذلك عند ربة الدار وهى الآن فى عملها وستعود حول الساعة السابعة . فقال قائلنا أولست رب الدار؟ وقد يكون عندك نبأ ذلك ! فاجاب نعم ولكن هذا من شأن السيدة فتفضلوا بالعودة ريثما تعود وبينكم وبينها يكون الحساب .

نزلنا على أن نرجع وقلت فى نفسى إن فى هـذه الطبقات الفقيرة من يذكر حكمة الانجيل «دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله» ثم ذهبنا إلى حيث صرفنا وقتنا وعدنا فى الموعد المضروب . طرقنا الباب ففتحته لنا سيدة تماثل زوجها فى العمر ترتدى بزة بسيطة نظيفة . تنم عن فقر وصبر. ولما دخلنا الدار انغمرت أسماعنا

فى جو من التوقيع والنغم فنظر احدنا وقال إنه طفل صغير يعزف فتوجهت أنظارنا حيث الغرفة التى تتدفق منها الموسيق تدفقا وكان بابهـا مواربا قليلاً ففطنت السيدة الى دهشنا ودعتنا لندخل تلك الغرفة . وهناك وجدنا الشيخ الخباز يجلس على حافة السرير الصغير ، وفتاة وفتى من الجار الجنب يجلسان على حافة السرير الآخر، وبين يدى الفتى آلة موسيقية شبيهة بالعود ، أما الطفل فكان أمام البيانو يدق بأنامله الماهرة الدقيقة ويرافقه الفتى على الآلة الأخرى والفتاة كانت تشترك معهما بصوتها انشاداً . لم يكن لنا فى تلك الغرفة مكان لنجلس ، فوقفنا ووقف الشيخ معنا وضاق المكان بنا وبما فيه من أثاث . سألتنى ربة الدار عما إذا كان لنا رغبة فى سماع شىء معين . فطلبت لحناً من تأليف الموسيق (اشتروس) . فأخذ الغلام يعزف بحذق ماطلبت . وكان الشيخ أبوه ذو القميص الأزرق واللباس المرقوع يرمقه بنظر العاطف الآمل·وأمه فى زاوية تحيطه بحنانها وغبطتها . ولمحت لباس الصبي فوجدته ممزقاً رثاً . طأطأت رأسى إجلالاً لأنى كنت أسمع من دقات الصبي أنشودة الفقر والجد والشرف ، ونظرت إلى من حولى من الرفاق ليستوحوا من تلك الحياة موعظة .

ولما انتهى الغلام من توقيعه بين إعجابنا صفقت له مع رفاقى وهنأت به أمه وأباه . ثم دعوت السيدة لتنتقل معنا الى الغرفة الثانية لنتفاوض فيما جئنا من أجله . وهناك قدمت الحديث بكلمة فى الموسيقى وفى مستقبل ذلك الموسيقى الصغير وإذ ذاك قالت السيدة بشىء من السذاجة والألم . . . « لقد قال لى الأستاذ الموسيقى « ماير » عامى صبيك فقد يصير رجلاً عظيم الشأن فى الموسيقى شبيه « بموزار » ولكن عملى وعمل زوجى ودخل الغرفة التى أؤجرها لا يبقى لنا من المال ما نربى به نبوغ الولد »

تأثرت وتذكرت أن النبوغ طالما نبت فى أمثال هذه العائلة التى شعرت فى جوها بالفضيلة والصبر والقناعة وفهم الحياة والاحتيال الشريف على التمتع بما فى العيش من جمال . تذكرت من رجال الغربيين «روسو» و « كنت » وتذكرت « رينان » .

ثم قلت فى نفسى عائلة تطلب اليسير من المال فلا تجده لتكوين نبوغ مرتجى ، وعائلة تصرف الكثير من المال على ولد فيكون من الضالين . حارت الأفهام فى تقسيم الحظوظ . ألحكمة يفعل الله ذلك ؟ ؟ ! !

فينا فى ١٧ من سبتمبر سنة ١٩٢٤

ضيق وضجر

شىء يوقر الصدور فلا تتسع الصدور لما ينعش من هواء .

شدة تقرب بين ثنايا الجبين وتخفى فى غورها اشراق الجبين .

نقطة سوداء فى الأفق يرعاها البصر الكليل ، ولا يحيد عن مرآها البصر الكليل .

عروة تصل بين الحاجبين ، وعقدة تضرب على الشفتين الصامتتين .

سدادة تلقى فى الأذن، فلا تسمع الأذن عبارة تسلية أو كلمة عزاء.

سيال يسرى فى الأعصاب فيخدر الجسم عامل القوة وعامل النشاط .

*
* *

ومع ذلك فقد تكون نسمات الليل نقية باردة ولكنها تمر الى الصدور دون أن تحس الصدور بردها وسلامها .

ومع ذلك فقد تكون الجباه ملساء ينعكس عن لمعانها نور الله ورضاه ، ولكنها تخفى النور وتبدى الغضب .

ومع ذلك فقد تكون فى الفضاء شموس وأقمار وأضواء متلألئة ولكن العين لا تقع إلا على النقطة السوداء .

ومع ذلك فقد تسيل البسمات وتنتقل من شفة الى شفة ، كما ينتقل الطير من زهرة الى زهرة ، ولكن البسمات لا تقع على بعض الشفاه .

ومع ذلك فقد يحمل الهواء ألحاناً عذبة ، ونغماً شجياً ، ولكنه لا يحمله الى بعض الآذان .

ومع ذلك فقد تكون مادة الأعصاب سليمة لم تأكلها السنون ، وتعاقب الأوصاب واللذات ، لكنها لا تقوى على الحركة ولا تستمرىء للنشاط طعماً .

تلك هى صورة الضجر . وذلك هو شأن الضجرين .

*
* *

وكم من مرة يحاور الضاجر نفسه فى أمر ذلك الضيق وفى بيته رغيف يأكله فلا يشكو جوعاً ، وفى حقيبته كساء يرتديه فلا يخاف عريا ، وتحت سماء الله سقف يظله فلا يخشى قلة المأوى ، وعلى أرض الله فراش وثير يتقلب عليه إذا أوى فلا يخاف خشونة وبأساً .

وكم من مرة يقول : أى سم جرى فى دمى فكان مصدراً لذلك الضجر ؟

وأى غبار يختلط بالهواء فيصير الى صدرى فيحبس عنى الهواء رطباً بليلاً ؟

وأى كثافة تختلط بالأضواء فلا تشف عن لآلائها وبهائها ؟

وأى سحرة تمسخ تلك الوجوه أمامى فتحول الى أشكال القردة الهازلة ؟

وأى سحرة تلون تلك الوجوه بالأحقاد القاتمة ؟

*
* *

أف أف يا رباه . . . أهو دم فاسد يجرى فى عروقى فيفسد على هذا الوجود ؟ أم هى مواد حللها الفساد فاغتذى الجسم منها فلا أرى فى الكون إلا فساداً ؟ أم هى الحياة الاجتماعية قد اعتلت واختلت ، وأحوال النفوس قد فسدت ؟

أف أف . . . لقد فسد جو الحياة الاجتماعية فأصبحت أكثر النفوس لا تتنفس إلا ضيقاً وضجراً . فتى يستحيل الضيق فرجا ينفث عن الصدور ويطهر الجو المسموم ؟

القاهرة فى ١٣ من يونيو سنة ١٩٢٤

لذكرى الأديب(١)

... وفى الليل تتألق نجوم فى السماء، وعلى الغصون زهور تبتسم، وعلى الصدور لآلىء تداعب النور، وفى القصبة وحى ودرر بين أصابع الأديب ..

* * *

ويسألون ما الأدب ؟ ويسألون من الأديب ؟ ..

الأدب عالم معنوى تتغذى منه العواطف الرقيقة، والأفهام الدقيقة، بل هو معراج ترقى به النفس الى السماء لتشعر بالجمال، وتعقل الكمال .

والأديب إنسان يعلم كيف يتحدث الى النجوم المتألقة، وكيف يخاطب الغصون المياسة والزهور، وكيف يجعل من صرير القلم نغماً شجياً .

يكدح ويكد، وقد يسهر الليل وراء لفظ من الألفاظ، بل قل وراء درة ليسكن فيها المعنى الطريف .. بل وراء أحرف إذا هى امتزجت فكأنما هى أوتار تسمعك صوت المعانى عالياً رناناً . بل وراء قبس من نور يضىء حول الخفى المستور فى زوايا

(١) كتبت لذكرى المرحوم السيد مصطفى لطفى المنفلوطى

النفوس ، فتراه واضحا جليا . . بل عن صور من الفزع والجزع والغبطة والهناء ، ليرمز بها لمعانى الفزع والجزع والغبطة والهناء . .

*
* *

وبينما يكون فى مجالس الناس إذ يقص القصاصون ، ويتحدث المتحدثون ، ويتسامر المتسامرون ، فتنظر فى وجهه ، فترى حدقتيه كأنهما اتجهتا الى عالم آخر . وكثيراً ما تطير نفسه الى حيث تناجى الملائكة ، الى حيث تتخاصر المعانى والكلم .

وبينما قوم يلهون فى مآكلهم ومشاربهم ، ومتاجرهم ، وترهاتهم ، ودسائسهم ، يلهو الأديب بما يهبط عليه من عالم البيان ، وما يستوحيه من عالم السحر الحلال .

وبينما قوم يعيشون بجسومهم ونفوسهم على الأرض وحول المادة ، يعيش الأديب بنفسه فى السماء وحول ما فى السماء . .

وطالما تحول ذهنه المكدود واكسير دمه وخلاصة عصبه الى تلك السطور التى تقرءونها وتقولون انه يكسب منها ثناء ، أو مالاً . ولكن كل ما يكسبه الأديب من مادة يتحول عنده معنى وأدباً ، تتنفسون من نسماته ، وتتنسمون من شذاه .

يعيش الأديب من العمر ما شاء الله أن يعيش ، ولكنه يعيش فى الفن وللفن . وتصادفه فى حياته آلام وأوصاب ، ومع ذلك تمر عليه ساعة هناء لا يعدلها عنده أى متاع وهناء . ساعة يتزوج المعنى من لفظ ، ساعة يحضر هذا الزفاف المحمود .

*
* *

يعيش الأديب فى أدبه ثم يأتيه الموت ! . . الموت ! ! . حينئذ ينضب الحوض الزلال الذى كنتم منه ترتشفون . حينئذ يسكت البلبل الذى كنتم بأغاريده تطربون . حينئذ لا تجد الطيور من كان يداعبها فى غدواتها وروحاتها . حينئذ لا تجد النجوم من كان يسامرها فى داراتها وعوالمها. حينئذ لا تجد الحسان من كان يعلم كيف يناجى الحسان ويفهم قدر الحسن والغزل .

حينئذ تفقد المعانى من كان يدق لها الطبول لتتخاصر مع الألفاظ ، وتسألون أين الذى كان يخاطب الغصون إذا ماست ، والفاتنات إذا دللن ، ويحرك الأفئدة العاطفة ، ويطمئن القلوب الواجفة . . وتسألون أين الذى كان يحرق البخور ويعطر الهواء ؟؟

إنه الآن فى الثرى وتحت التراب . . . . . .

*
* *

يا صاحب الجبين الندى ، والذهن المكدود : أنك تموت بعد الحياة ، وتسكت بعد الخطاب ، وأنك تجد الملائكة تهىء لك عقوداً مما ثقبته من لآلئ ودرر . فإذا كان فى عقد منها خرزة صغيرة من خزف فاعلم أنها دليل هذا اليوم الذى هبطت فيه من عالم الأدب الرفيع فشاركت الناس لحظة فى ترهاتهم وأباطيلهم . على قبر الأديب تحية وسلام .

ليون (فرنسا) فى ١٨ من أغسطس سنة ١٩٣٠

فى الغـابة

يوم الأحد . . . وقد أشرقت الشمس ، واعتدل الجو ، وأمسكت السماء صيبها بعد أن عبست وأمطرت مدراراً فى أيام هذا الأسبوع الماضية .

خرجت من الفندق قاصداً الغابة القريبة فانتهجت سبيلاً مطروقاً ثم عرجت فى سبيل آخر إذ سمعت ثمت نغماً موسيقياً مطرباً .

ولما بلغت مفرقا للطرقات ألفيت هناك رجلاً مبتور الساق يستند على شجرة وبين يديه آلة من آلات العزف يوقع عليها ذلك النغم الشجى . فى مثل هذا اليوم الصحو يحج القوم إلى الغابات من أقصى المدينة والضواحى المجاورة نسوة ورجالاً ، وفتياناً وشيباً ، وأطفالاً ، ورضعاً . وفى مثل ذلك اليوم يقضى الناس شطراً عظيماً من نهارهم فى حضن الطبيعة بين لفائف الأشجار ليتنفسوا من نسيمها المجدد للدماء . وفى مثل هذا اليوم يكسب ذلك المنكود ما يجود به ذوو الشفقة وأهل الإحسان من هؤلاء المستريضين .

ذهبت كذلك لكى أمتع نفسى بما ليس فى بلادنا من مناظر تلك الربى وتلك الغابات ، ثم اتخذت مكاناً غير بعيد من الموسيقى وغير بعيد من الطرقات التى يمر بها الرائحون والغادون . فمن أم وبنيها ، ومن زوج وزوجها ، ومن غادة هيفاء تتأبط ذراع فتى مليح ، وكثير من هؤلاء المستريضين يحملون أدوات يستخدمونها لطعامهم وشرابهم ولهوهم . وكأن هذه الطبيعة تسع فى حيزها تلك المظاهر المختلفة التى يظهر الناس بها : فمن مظهر للبر إذ تجد أما رءوما تمتع صغارها بحاجاتهم من الرياضة واللعب ، ومن شيخ وشيخة يشتركان معاً بين أحضان الطبيعة فى جميل الذكريات وفى تحية الوداع لحياتهما الآفلة ، ومن شاب وشابة يشتركان فى المتاع بسكرة الحب والنسيب ، ومن فاجر وفاجرة يعتزلان ناحية تحت خمائل الأشجار ويتفننان فى أساليب الخلاعة والفجور .

وكأن الكل لا يتناجون إلا همساً فى حضن تلك الغابة حيث خيل الىّ أن صفوف الأشجار الباسقات كأنها حراس شداد وقفت خاشعة إجلالاً لهذه الطبيعة الواسعة الرحمة التى تفسح بين أحضانها مجالا للبر والفجور .

أن الطبيعة وسعت كثيراً ، ورحمة الله وسعت كل شىء ،

ولـكن عواطف الإنسان وعقله قيدتها تقاليد وشؤون، فما أضيق صدر الإنسان إزاء السعة الطبيعية والإلهية .

فكرت مليا فى معانى الحرية وأخذت أنظّر بين فهم الغربيين وفهم الشرقيين فى تقدير الحياة ، ثم اعترانى تعب فشعرت بحاجة الجسم الى الراحة فألقيت به على تلك الأرض المفروشة بالعشب الأخضر وبما تساقط عليها من أوراق الشجر اليابسة وحسبت أن جسمى قد حن الى أصله فى الثرى فوضعت صدرى على أديم الأرض ، ثم بسطت ذراعى كأنى أضم بهما تلك الأم الروم ، وكأنى كنت أقول إيه يا أمنا الأرض أن دمى ولحمى وعظمى وعصبي لفى حاجة الى نفثة من تلك النفثات المنعشة التى تملئين بها ذراتك فتستحيل قوةً وحياةً . ثم عدت فجلست وحدقت الى ما كان يبدو من السحب من خلال تلك الظلال الوارفة فوجدتها تتلبد رويداً رويداً وأخذ القوم حينئذ يهيئون شؤونهم ليعودوا الى حيث يلتجئون من غضب السماء إذا هى أمطرت ، وأخَذ الموسيقى المبتور يردد نغمات أخيرة خافتة خلتها أنشودة الوداع لذلك الصفاء الذى متعت الطبيعة به القوم حيناً قليلاً . . .
ثم تساقط الرذاذ . . . . ثم تحوّل مدراراً .

ولقد كنت آخر من آب الى مأواه فى الفندق الذى أسكنه.

ولما بلغته خلعت عنى معطفى المبلل ودخلت بهو المكان فوجدت القوم ما بين عازف وراقص وسامر وصادح فأيقنت أنى فى قوم يعلمون كيف يحيون حياة طيبة ويستفيدون من أيام راحتهم سواء صحت الطبيعة أم غضبت .

حيا الله الحياة وحيا الله قوماً يقدرون معنى الحياة .

ميدلينج هنتر بريل بالنمسا فى ٧ من سبتمبر سنة ١٩٢٤

دار ودار

أعرف فى بعض مناهج القاهرة ، غير بعيد من احدى دور الحكومة ، منزلاً صغيراً محيلاً شاحب اللون . ومكانته بين المنازل الفخمة التى تحيط به وتواجهه كمكانة الرجل الهزيل الرث بين قوم ذوى نضرة وبهاء ، فلا يلفت النظر حالهم بمقدار ما تلفته رثاثة ذلك المسكين .

*
* *

لقد سكن هذا المنزل صديق لى كان فيما مضى متوسط الحال . ولما فتح الله عليه وشال فى جو المراتب تركه إلى منزل آخر كبير ، منبسط العرض منبعج البطن ، واضح اللون ، نقى البشرة .

*
* *

لعل صديقى لم يخالف سنة المألوف فأوسع على نفسه إذ أفاض الله عليه الخير وخلى المسكن القديم لمن يتناسب حاله مع حاله من تواضع وإقلال . ولعل ذلك المنزل لم يطرأ عليه منذ عرفته شىء يذكر ، لا فى صورته ، ولا فى شأن أهليه ، ولا فى أمر أصحابه فلم يُصَبْ ببتر ، أو شق ، أو تحويل ، أو تغيير ، حتى

يحسن قوامه ويجمل منظره . ولعل كل ما أصيب به هذا المنزل منذ عرفتــه كان مرض الرطوبة ، فكان يعالج باستبدال أحجار غير التى بليت . وكان لا يغادره ساكن متواضع إلا ليحل محله ساكن يشبهه تواضعاً . وكان لا يبيعه مالك مقل إلا ليشتريه مالك مقل . ومجمل القول فى تاريخ ذلك البيت أنه ذو بقاء طويل متشابه يحيط به الذكر الخامل .

* * *

لكن على مقربة منه قصر فخم هو الآن دار لإحدى مصالح الحكومة . وأذكر أنى عرفته من نحو ربع قرن إذ أتيت لأول مرة من الريف إلى مدينة القاهرة ، ودخلتــه مع صديق طفل يتصل بوشائج القربى مع خادمة من خادمات ذلك القصر الذى كان يسكنه وقتئذ أهل العز والإقبال .

أجلسنا فى غرفة صغيرة ، وكان ذلك أول عهدى بنور الكهرباء فأخذت أعبث وألعب كما يعبث الطفل الريفى ، وأتسلى بإصدار ذلك النور فأدير الزر الكهربائى وأنظر وأدقق حتى جاءت قريبة زميلى الصغير وأخذت قسطها من مسامرته ومداعبته ثم انصرفت عنا وانصرفنا إلى حيث كنا نبيت .

*
* *

مرت أيام وأيام ، وللأيام أدوات ومعاول تعمل بها فى الكون إصلاحاً وإفساداً ، وتشييداً وهدماً . فهدمت فى تلك الدار مظاهر العز والإقبال وورثها غير أهلها الأولين . ثم تقادم العهد فوصل إليها الخراب فاغبرت وأصبحت لا تشرق بما كانت تشرق به من بهجة وسعادة . ثم مرت أيام تلو أخرى ، فأغلقت أبوابها وخزائنها على ما كان فيها من رياش وأثاث . ثم مرت أيام تلو أخرى ففتحت تلك الخزائن وعرضت طنافسها وزرابيها وانساب فى غرفاتها المساومون والدلالون ثم مرت أيام تلو أخرى ، فابتاعتها الحكومة ودخل فيها المهندسون والبناؤن وشقوا فى جوانبها ، وبدلوا فى أوضاعها ، ثم مرت أيام تلو أخرى ، فسكنها مستخدمو الدولة من العمال والكتاب والحجاب وأصبحت موضعاً تطؤه أقدام الخاصة والعامة وكلهم يرى فيه له حقاً .

ومجمل القول أن هذه الدار تغيرت من حيث معالمها ، وتغيرت من حيث أحوال أصحابها ! وتغيرت من حيث زوارها وقاصدوها ، وفعلت بها الغير ما لم تفعله بالدار الضئيلة الأولى .

*
* *

سبحان من لا يتغير . . .

نظرة إلى هاتين الدارين المتجاورتين تذكرك أن للمجد أجلاً وإن طال وإخال أن الرفيع الذى دل ثم ذل ، واشمخر ثم اندثر ، وشال به الإقبال ، ثم حط به الإقلال ، قد يحسد المتواضع الذى يبقى على حاله طوال الأيام صابراً ولربه شاكراً .

القاهرة ٢٠ من يونيو سنة ١٩٢٥

حياة حول موت

فى تلك المقابر ، القريبة من قرى مصر ، كثيراً ما تجد قبوراً خربة متهدمة الأركان ، متخلخلة اللبنات ، مثغورة الجوانب ، كأنها ترمز الى الموت فى أبشع صوره من تهدم وتخلخل وتبعثر .

وقد تجد أشجاراً من النبق أو الجميز غير مشذبة الفروع ، ولا متناسبة الوضع ، تظلل هناك صهريجاً من الماء كأنه رمز للأسف المقيم الدامع .

وان تلك الألوان البيضاء المغبرة ، والألوان الطينية القاتمة ، التى تظهر بها هذه المقابر ، ليست من الجمال فى شيء ، فلا توحى اليك بلغة الألوان والتناسب أن للموت عظة ورهبة وجلالاً .

*
* *

لست أريد بما أسلفت أن أرسم لك صورة لتلك المقابر الكريهة ، ولا أن أمثل لك الموت فى شكله مزدرى مهاناً ، لكنى ألفتك الى أن حول تلك القبور كثيراً ما تجد حقولاً يانعة بالنبت الغض ، وفيها طيور مغردة فرحة ، وتجوب فى أنحائها حشرات مرحة ، وفيها صفحة للحياة واضحة .

*
* *

وهناك فى حقل من هذه الحقول الحية ترى إنسانا حيا يعمل فى الأرض ، فيستنبت النبت ، ويعين الغصن النامى فى وجهته الى النور والسماء ، وينعش الزهرة للابتسام ، ويتعهد ما يبدو على أديم هذه الأرض من مظاهر الوجود .

وإنى لأسائل نفسى عن حال هذا الانسان بل أسائلها عن قيمة تلك الحياة البشرية التى تكد وتكد حتى وهى قاب قوسين من تلك المقبرة .

*
* *

ليست حياة الانسان أن يقنع بما يشترك فيه مع آخر الكائنات من غذاء ، ونمو ، وسعى ، وتناسل . لكن الحياة لا تكون حياة إنسانية إلا إذا تيقن الفكر البشرى بمنزلته من عالم التفكير .

يقول بسكال : « خطر أن تظهر للمرء أنه شبيه بالأنعام من غير أن تظهر له عظمته ، وإنه لخطر كذلك أن تظهر له عظمته من غير أن تظهر له حقارته ، وأخطر من هذا وذاك أن تتركه فى عماء من عظمته وحقارته . ولكن من المصلحة أن تظهرهما

له جميعاً » فهل يعلم هذا الفلاح حقا قيمته من هذا الوجود . ؟ وهل يعلم حقا نصيبه من عظمة أو مهانة ، وما له فى هذه الأرض من مكانة وهل ترج حياته حقاً فى عداد الحيوات الطيبات ؟ وهل يحشر موته حقاً فى زمرة الموت المستطاب ؟

كما أن بعض الموت قد يصير ينبوعاً لعيش رغد منير فان بعض العيش يكاد يكون موتاً مظلماً كريهاً .

*
* *

تعس من يعيش عيشاً لا خير فيه ، وتعس من يموت موتاً لا خير فيه ! !

وما أقسى حياة تلوح كأنها الحياة تعمل وتكدح ... ولكن ... قاب قوسين من هذه المقبرة .

القاهرة فى ٢٧ من يونيو سنة ١٩٢٥

طيف زائر

زارت دارنا منذ أيام عجوز انقطعت بين دارنا و بينها أسباب التزاور منذ عهد بعيد يرجع إلى زمن طفولتى . إذ كنا فى بلد غير هذا البلد ، وفى دار غير هذا الدار، وفى محيط غير هذ المحيط وكانت دنيا حينئذ فى أخلاقها وفى شئونها غير دنيا هذه الأيام .

ولست أدرى أى ظروف هيأها القضاء لهذه الشيخة الفانية فجاءت إلى مدينة القاهرة ثم علمت أين نسكن ، وأين نكون من غير الدهر وأين نكون من أمور الحياة .

لم يعرف زائرتنا صغار المنزل الذين ولدوا تحت سماء غير السماء التى أظلت طوال الأيام تلك الزائرة ، لكن لم ينكرها عجائز البيت رغم ما اتصل بسحنهم من توالى السنين .

ولقد توخيت أن أكون بحيث لا يعطل مجلسى ما قد ينشأ بين ممثلات الماضى من حوار ، وبحيث استطيع أن أسمعه أملاً فى أن أجد درة تكون فى طيات تلك الأحاديث المتهدجة ، وربما يعثر المرء على موعظة بالغة تلقيها حاملات الليالى والأعوام .

بقيت طويلاً على هذا الحال أتسمع من القول ما يتصل بعضه بذكريات حياتى الماضية وخيل إلى أن كل ذكرى

كانت تنقلنى بأسرع من لمح البصر ، فتقطع بى شوطاً بعيداً إلى حيث أحل بالماضى الذى أسكن اليه ، وأسعد لحظة بصورته البسامة الهادئة .

ولما حانت ساعة نزولى من الدار ارتديت ملابسى وخرجت وفى أذنى صدى لحديث العجائز ، ثم اتخذت سبيلى المعتاد فى حارة ضيقة من حارات الحى الذى أسكن فيه وهناك لقيت شيخاً معمماً بعمامة حمراء ، مرتدياً جلباباً أزرق ، ذا لحية لم يكمل بياضها ولم يغادرها قليل السواد ذا وجه فيه علامات الصبر والأسى ، بيده أصناج يدق بها دقاً موسيقياً لطيفاً على السمع ، وينشد ضروباً من الأناشيد القديمة التى تخرج من صدره أكثر أنغامها وأقلها يخرج من حنجرة تستبق شيئاً من عنفوان الشباب ورنته .

*
* *

وقفت من الحارة فى موضع أسمع فيه صوت الشيخ الشادى وأتبع بنظرى حركاته ، وأوطن سمعى لما يحمله الهواء من أغانيه ونبراته التى كنت إخالها لشبح من أشباح الماضى البعيد . ثم انعطف الرجل فى منعطف ، فتوارى عن بصرى ، وانقطع صوته عن سمعى ، ولم يبق منه الا الصدى الضئيل .

حينئذ مضيت ولكن تذكرت أن الفرد لا تكمل شخصيته إلا إذا اتصلت حياته بما يربطها من الماضى بذكريات ، وأن الأمم لا تكمل قوميتها إلا بما يذكرها بالغابر ومشخصاته البائدة وما أتعس امرأ يهون عليه ماضيه ، وما أشقى أمة لا تستبقى من تاريخها طيفاً يزور .

القاهرة فى ١١ من يوليو سنة ١٩٢٥

حول ما لله

أن بعض بيوت الله من مساجد ، ومعابد ، وكنائس ، تجدها فخمة البناء ، عالية الأركان ، فيها الزرابى المبثوثة ، والآنية النفيسة ، والتحف الثمينة . وفيها مظاهر الفن والزخرف ، وما تشتهيه نفوس الطامعين . وقد يؤم تلك البيوت قوم من الناس وهم فى مظاهر وجاهتهم وأبهتهم فتنتظرهم على أبوابها السيارات الفاخرة والخيول المطهمة .

وتجد فى بعض الحقول ، وعلى حافة بعض النهيرات التى تجرى فى هذا الوادى ، مسطحاً صغيراً من الأرض فرشت عليه أعشاب وحشائش مجففة ، وله شبه سياج من غصون الأشجار وفروعها . وهناك ، فى وقت الأصيل قد تجد فئة من عمال الحقول يستقبلون قبلة الإسلام ويصلون لله فى بساطة ، ويسجدون لجلاله فى خشوع ، ويذكرون اسمه لا فى عنت القول ، ولا فى تكلف البيان .

عند ما أتمثل صورة تلك المعابد الضخمة وبعض زوارها وروادها ، ثم أتمثل صورة ذلك المصلى الذى يهيئه الفلاحون فى

ناحية من حقل ، أو على مقربة من غدير أتذكر بعض ما يروى من آثار اليونان الأقدمين من أمر الزلفى الى الله ونية المتزلفين .

*
* *

يذكر « فرفريوس » أن أحد سراة « تساليا » قصد الى معابد « دلفوس » ليتقرب الى ربه ومما أعده لذلك مائة من الثيران مذهبة القرون .

وبينما كان هذا الغنى عند المعبد بمظاهر جبروته ووجاهته إذ أتى رجل فقير من أهل «هرميون» فاقترب من المذبح وأخرج من جعبته الحقيرة قبضة من الدقيق وألقى بها فى لهب النار المتوقدة عند المعبد . عندئذ أعلنت السادنة، التي كان ينتظر الناس قولها فى أى القرابين كان عند الله أكرم ، أن ربها قد تقبل بقبول حسن قبضة الدقيق من فقير «هرميون» ولم يكن ذلك نصيب القرابين التى ساقها سرى « تساليا » .

*
* *

ولقد يتخذ أهل الأخلاق من مثل هذه القصة بعض أدلتهم فى الحكم على قيمة الأعمال بما يتصل بهـا من النيات . فذلك الذى كان يتزلف الى ربه بمظاهر كبريائه دون أن تخلص نفسه

من عوامل المفاخرة كان أبعد من الله من ذلك الذى تقدم له بالقليل مخلصاً . وأحسب أن هذا العامل القروى الذى يفرغ من عمله فيذكر ربه وحيداً منفرداً لهو أدنى اليه من هؤلاء الذين يقصدون إلى بيوته العالية ليعلنوا للناس أنهم تقاة وليظهروا للناس أنهم من الصالحين . وأخال أن كثيراً من هؤلاء الذين يتظاهرون بغيرتهم على دين الله وعلى ما لله فيصيحون ، ويهولون ، وينادون لنجدته ، ويحفزون لنصرته ، هم أبعد من الله من شيخ مخلص يرشد فى السر ويصلح فى السكون .

*
* *

أن لله صدق النفوس ، وأنه لفى غنى عن المساجد الفخمة والكنائس الضخمة ، وأنه لفى غنى عما يساق اليه من ابتهالات منمقة ، وصلوات غير صادقة ، وأنه لفى غنى عن ضجة تقام كأنها لوجهه أو كأنها لنصرة دينه ما لم يلابسها حسن النية وإخلاص الضمير .

القاهرة فى ١٨ من يوليو سنة ١٩٢٥

رحاب العلم و رحاب الدين

منذ بضعة أيام نقلت لنا الصحف الأمريكية أن فى إحدى ولاياتها صراعاً جدلياً قد احتدم بين طائفتين إحداهما تنصر مبادىء الدين والأخرى تدعو لمبادىء العلم وتنصر مذهب أهل النشوء والارتقاء. ومنذ أيام نقرأ فى صحف بلادنا مقالات بعضها من مؤلف كتاب «الاسلام وأصول الحكم» وأنصار له يذهبون إلى أن دين الاسلام لا شأن له بمسائل الخلافة ، ولا بصورة خاصة من صور الحكم ، والبعض الآخر يكتبها طائفة من رجال الدين ينكرون على المؤلف ما ذهب اليه ويدعون إلى اخراجه من حظيرتهم لأنه فكر على أسلوب غير أسلوبهم ونظر فى بعض المسائل على وجه غير الذى به ينظرون .

*
* *

ولقد بين لنا التاريخ أن كل عصر من العصور لا يخلو من جدل عنيف بين رجال طائفة بعينها . فقديماً تجادل رجال الدين فيما بينهم ، وقديماً تجادل رجال العلم فيما بينهم ، وقديماً نزع بعض رجال الدين إلى أن يخرجوا بعضاً آخر من حظيرتهم ، وقديماً نزع

بعض رجال العلم ألا يعترفوا بعلم آخرين خالفوهم فى رأيهم ونظروا الى الأمور بغير نظرهم .

ولم يكن منشأ هذا الجدل العنيف الذى لم يخل منه عصر ولم تتبرأ منه أمة إلا قصر الأنظار وضيق الصدور .

كأن الجامدين من أهل العلم أو من رجال الدين قد لا تصل أبصارهم أحياناً إلى لآلاء تلك الحقيقة التى يتألق بها كل شىء فى الوجود ، والتى تظهر أن طرائق الافهام تتحول . وكأن فى آذانهم وقراً فلا يسمعون صدى المنطق السليم يردد أن رحاب الدين الحق واسعة ، وأن رحاب العلم الحق واسعة ، وكأنهم يحسبون أن القوالب التى صبوا فيها آراءهم حيناً من الدهر تظل على حالها رغم كر الدهور ومر السنين .

*
* *

إن من أهل الدين من يعرف لله تعالى أسماءه الحسنى فيصفونه بالرحمة ويصفون رحمته بالسعة ، ولكنهم يحدون أفقها بمقياس أبصارهم القصيرة . وان أهل العلم ليعرفون أن حبل العلم ممدود وأن مداه غير محدود ، ولكنهم قد يتعنتون أحياناً فلا يريدون أن تسمو الأنظار الى رقبى ما هو محتمل .

ولو أنصف أهل الدين وأهل العلم جميعا لرأوا أن للدين الصحيح وللعلم الصحيح رحابًا يستطيع أن يأوى اليها كل وارد وأن يلجأ إلى ميادينها كل قاصد من غير اصطدام أو زحام .

ألا أيها الجامدون لا تضيقوا رحابًا بسط الله جنباتها للواردين ولا تسدوا أبوابًا فتحها الله للقاصدين .

القاهرة فى ١ من أغسطس سنة ١٩٢٥

الغيبة والبهتان

رذيلتان فاشيتان فى الناس ترتكزان على أسوأ خلال البشر ، وأكثر ما تعتمدان عليه : الجبن ، والحقد ، والحسد .

رذيلتان إحداهما مثلها مثل الوقح الذى لا يبالى أن يستر أمام الغير ما به من مظاهر القحة والسماجة ، ولا يستحى أن يبرز أمام الأنظار بما يلابسه من عيب ظاهر . والأخرى مثلها مثل اللص الذى يتلمس لنفسه من الظلمات مخبأ يسكن اليه بما سلب وهناك يلقى غنيمته ، ويدور ببصره فيما حوله من الخوف ، وتجحظ عيناه من الحذر ، وكلما ذكر أنه سارق دق فؤاده فزعاً وجزعاً .

أما الرذيلة الأولى فهى رذيلة الغيبة : وهى أن تقول فى الناس من خلفهم ما يؤذيهم ولو كان حقاً .

وأما الثانية فهى رذيلة البهتان ، أو الاختلاق وذلك أن تقول فى الناس ما يؤذيهم وأنت تعلم أنك غير صادق فيما تقول .

*
* *

للإنسان أن يستمتع بين من يعيش فيهم من الناس بحسن السمعة ، وباحترامهم له ، وبعطفهم عليه ، وذلك لأن الإنسان

مدنى ومن طبيعة المدنية أن يعايش الإنسان بنى جنسه ويعنى بتقديرهم إياه ، وصلتهم به ، ورعايتهم له .

لكن لهذا الإنسان نزعة الفرد ، وحق الفرد ، وحرية الفرد ، وهو يريد أن ينعم بذلك الحق فى مدى واسع لا يفقد معه حقه المتصل بنتائج مدنيته من عطف ، وتقدير ، وصلة ، ورعاية .

على ذلك يكون من الخير وحسن التوفيق أن يحتفظ الإنسان بحقه الفردى فى الحرية وبحقه المدنى فى حسن الصلة بالناس .

وعلى ذلك أيضاً لا يكون من الخير فى شىء أن تسىء إلى أحد فى سمعة حسنة اكتسبها ، وليس من الخير فى شىء أن تحول عنه شعوراً عاماً تألف لحبه .

وليس من الخير أن تخلق النفرة بينه وبين بيئته أو تجعل التقاطع بينه وبين عشيرته ، وليس من الخير أن تحول بينه وبين إشراق وجوه تلقاه بتحية وابتسام .

إنك إن فعلت كنت مغتاباً وما كان الله ليرضى عمل المغتابين.

*
* *

رب مغتاب يلبس مسعاه مسعى الأخيار ، وينتحل المعاذير ليتشبه بأهل الحق ، فيقول إنى أظهر للناس عيباً فى أحدهم قد

خفى عليهم ، وأظهر للناس صورة ما كانوا ليعرفوها على وجهها الصحيح .

ولو أن هذا المغتاب يريد الخير صدقاً لاتخذ الوداد ، قبل المخاصمة والعناد . وأخذ بأسباب الاصلاح قبل أن يشهر العداوة والسلاح ، ولأسر له النصيحة فيما يرى من العيب قبل أن يفشيه جهراً وعلانية ، فلربما كان فى افشاء العيب رذيلتان : رذيلة الاغتياب ، ورذيلة الافشاء .

*
* *

أيها الناس ، لا تتقولوا جهاراً على فلان ان شذ أو خرج لتؤذوه ، ولا تتقولوا على فلان انه أساء لتضروه ، فانكم تبوءون بإثم المغتاب ان كان ما تدعون صدقاً ، وتبوءون بجريرة المختلق الاثيم ان كان زوراً وبهتاناً .

القاهرة فى ٨ من أغسطس سنة ١٩٢٥

حقوق الافراد

لعباد الله من الله حقوق يجب أن تصان . لهم حقوق أساسية هى الأصول لكل ما يتفرع عنها من حقوق ، وهى التى يترتب عليها كل ما يطالب به الإنسان من واجب .

لعباد الله من الله حق الحياة فواجب عليهم صيانتها وعدم العبث بها حتى تستخدم لما جعلت له من واجبات هذا الوجود .

ولعباد الله من الله أن يكونوا أحراراً فى مظاهر عيشهم ومسعاهم ، وذلك لأن الذى يريد أن ينعم بهبة الحياة لا يستطيع أن يعمل حسبما تقتضيه شؤونها وظروفها إلا إذا كان حراً طليقاً لا يعطله عن أفعاله معطل ، ولا تقف عقبة فى سبيل شعوره بأنه الفاعل لما يفعل ويريد ، وأنه المسئول عما يهم به ويفعله .

ولعباد الله من الله أن يكونوا أحراراً فى إطلاق ملكاتهم المفكرة تسير فى داراتها كما تسير فى الفضاء الواسع تلك الشموس والأقمار لا تتقيد فى سيرها إلا بسبلها الخاصة من أساليب المنطق السليم ومناحى النظر المستقيم . ولتلك الملكات البشرية أن تتوغل ما استطاعت وما طاب لها التوغل فى مسالك المنطق

والنظر . وما كان العقل لابن آدم إلا ليتعقل به ، ولم تكن له ملكات التفكير إلا لتؤدى وظيفتها من بحث وتفكير .

* * *

تلك هى حقوق الإنسان الأولية التى تستلزم واجباته الأولية فحقك الذى ترعاه من الحياة يدعو إلى تقديرك للواجب نحو الحياة وحقك الذى ترعاه فى أن تكون حراً فى سعيك يدعو إلى واجبك فى تقدير حرية المسعى والعمل . وحقك فى أن تعتقد وأنت حر ، وأن تفكر بحرية ، يقضى بواجبك فى تقدير عقائد الغير وحرية الغير فى التفكير .

تلك حقوق لا حد لها إلا حق الغير فيها ، وأن كل تضييع أو تفريط فى تلك الحقوق أو فى بعضها لهو تفريط فى إنسانية الإنسان أو فى بعض ما له من معنى هذه الإنسانية .

أشد ما يؤلم امرأ يقدر حقوق الإنسان ، ويرعى حقوق الفرد أن يجد من قوانين الجماعات ، أو نزعات الحكومات ما يتعارض وتلك الحقوق فالقانون الذى يطول بحده القاسى فرداً يستخدم حقه الطبيعى فى حرية الرأى ثم يحول بينه وبين الحق المدنى فى العمل والسعى لهو قانون يتنافى وأصول الحقوق الطبيعية .

وأن النزعة التى تنزع إليها الجماعات فى تضييق ميدان التجاذب ، والتآلف ، والتسامح ، بينها و بين أفرادها لهى نزعة قاسية لا تتفق وتقدم الإنسانية ورقى الأمم وان النزعة التى تنزع إليها الحكومات أحيانا فى أن تبيح لنفسها ولأنصارها حرية التصرف والسعى والعمل ثم تنكرها على خصومها لهى نزعة قاسية هادمة لأقدس الأصول فى حقوق الأفراد ومصلحة الجماعات .

فيا أنصار الحق طالبوا بحق الإنسان حين تشعرون بخطر يهدد حق الإنسان . ويا أشياع الحرية انشدوا الحرية ما شعرتم ان الحرية الصالحة الصحيحة فى خطر .

١٥ من أغسطس سنة ١٩٢٥

الجمـــود

للجامدين أذهان ليست كالأذهان ، ولهم قلوب ليست كالقلوب ، ولهم نفوس ليست كالنفوس .

فأذهانهم لا تمتد إلى ما يمتد اليه النظر الواسع ، ولا تنسجم حركاتها حيث تنسجم مقدماته ونتائجه .

وقلوبهم لا تشعر بما تشعر به القلوب فلا تحس ألوان الجمال المتصلة بمظاهر الخلق ، ولا تتأثر بضروب الأحداث التى تختلف فى هـذا الوجود ، ولا تخفق لآيات الله فى السموات ، ولا تخفق لآيات الله فى الأرض ، ولا لآياته المطوية فى كر العصور وعبر الدهور .

ونفوسهم محجبة وراء سجوف من السواد ، لا يصل اليها ضوء من الأنوار المتلألئة فى نواحى الـكمال ، ولا تنبعث فيها حرارة الإيمان بالتقدم والخير ، ولا يستعر منها قبس لنار الهمة المتحفزة للأمام .

*
* *

ان طبيعة الذكاء أن يتطاول إلى شئون هذه الحياة ليحوزها بالفهم ، وينبسط إلى الأمور ليتصل بها بالمعرفة ، وطبيعة الجمود

أن ينقبض عن أشياء هذا الوجود وينصرف عنها . والجامدون ينكمشون إلا عما ألفوه، وينقبضون إلا عما ورثوه .

إن أظهر ما يمتاز به الإنسان عقله الذى يبحث به وشخصيته الضاربة جذورها فى الماضى، القائمة سيقانها فى الحال، الممتدة فروعها وغصونها للمآل .

فالبحث إذن هو من خواص العقل ، والانسياق مما هو حاصل إلى ما هو منتظر ركن من أركان الشخصية البشرية، والعقل والشخصية كلاهما ميزة ابن آدم . لكن الجامد يعطل عمل العقل، ويكبل نزعات الشخصية ، ويقص جناح التطلع ، وأكثر أعماله وحركاته قد تتصل بالعادات ، والمألوفات ، والغرائز .

وعندى ان أهل الجمود هم أدنى إلى معانى الموت منهم الى معانى الحياة الصحيحة : وذلك لأن شأن الحياة الصحيحة أن تظهر فيها الحركة متصلة غير مقطوعة ، ومتشعبة غير مركزة ، وتتفاعل مظاهر الحياة بعضها مع بعض على مدى واسع غير محدود . لكن الجامدين لا يتصلون بالحيـاة إلا من بعض جهاتها ، ولا يفسحون نفوسهم لأطرافها المترامية .

*
* *

للجمود عصور يشتد فيها أمره ، وتقوى فيها زمره . وقد تكون تلك العصور هى عصور الجهالة والانحطاط ، وتغلغل طبائع الاستبداد ، ودنو الشعوب من الشيخوخة والهرم .

وفى هذه العصور يكون مثل الجامدين مثل الطفل الذى قد يريد به أبواه خيراً فيسرعان ليحولا بينه وبين غذاء فى عناصره سوء فيغضب الطفل ويصيح ويبكى، وكذلك أهل الجمود فإنهم يغضبون ، ويهلعون ، ويجزعون عند ما يراد بهم الخير، لأنهم قد لا يعقلون التمييز بين ما يضر وما ينفع .

*
* *

لكن الأطفال تساس أحياناً وتؤخذ باللين ، وتقهر أحياناً وتؤخذ بالقسر . وفى عصور الانتعاش يجب على المجددين أن يعلموا كيف يساس أهل الجمود .

الجمود فى الأمم شر وأذى وإثم ، فحاربوه إن وجدتموه .

القاهرة فى ٢٤ من اغسطس سنة ١٩٢٥

الى الفتيات المبعوثات

. . . وكما أن الحاضر من الأيام يمثل لنا أحياناً صورة من صور الماضى فتكاد تحسبه الماضى دون أن يكونه ، كذلك قد تمر بوجه السماء المشرقة سحابة فتحسب أنك فى فصل الغمام دون أن تكون فيه ، وكذلك قد تذرف العيون دموعاً رطبة ، وقد يتهدج الصوت بنبرات متقطعة فتحسبك محزونا دون أن تكون كذلك حقاً .

*
* *

تذكرنا الماضى البعيد حين ذهبنا إلى الثغر لنودع فتياتنا المبعوثات فى سبيل العلم ، فمثلت فى خيالنا تلك الأيام إذ أرسلنا مع زملاء لنا فى ذلك السبيل ، وشهدنا صورة من تلك الصور التى شاهدناها بالأمس من مظاهر الدعوات الخالصة ، والقبلات الطاهرة ، والوداع الشديد وسمعنا من الآباء مثل ما سمعنا بالأمس تلك الوصايا يزود بها الأبناء والأبناء مطرقون احتراماً ، وكأن رءوسهم تنخفض لما يلقى فيها من ذهب ثمين ، وان خلاصة ما شهدنا وسمعنا تنحصر فى دائرة من المعانى لا تخرج عن معنى الايمان والشرف والوطن .

*
* *

لم أنس من ذكريات الأمس البعيد شبح ذلك الشيخ الأسمر النحيف يقدم عند الوداع لأحد أقربائه من زملائى كتاب دينه المقدس فكأن آخر ما أوصاه به أن يذكر ربه ولو نسى كل شيء وقد رأيت بالأمس القريب آباء فتياتنا وأمهاتهن يقدمون لهن المصاحف ويوصونهن بذكر الله وما أجدر قلب الفتاة الطاهرة أن يعمره ذكر الله الكريم .

وقد سمعت بالأمس القريب ، كما سمعت بالأمس البعيد ، المودعين يذكرون فتياتنا بالخلق وبالشرف وما أجدر نغمات الشرف بأن تعمر أذن الفتاة وما أجدر الشرف أن يذكره الذاكرون لمن نبتن فى الشرق وعشن فى نوره وآلامه .

وقد سمعت بالأمس القريب من الآباء كما سمعت بالأمس البعيد ذكر الوطن وللوطن على أبنائه واجبات، وللوطن على أبنائه حقوق، ومرحى لمن يؤدى للوطن حقاً وهنيئاً لمن يقوم له بواجب.

*
* *

ان ذكر الله ونجوى اسمه عند السفر وحيال النازحين أمر قديم قد عرفناه وألفناه ، والوصية بحسن الخلق وكرم السيرة عند

السفر وحيال النازحين أمر قديم قد عرفناه وألفناه ، وذكر الوطن والوصية بعزته ومجده عند السفر وحيال النازحين أمر قديم قد عرفناه وألفناه . لكنا لم تألف قبل هذا الأمس القريب تلك الدموع الغالية ترسلها تلك العيون ، وتلك الزفرات تفيض بها صدور يملؤها الحنين ، لم نألف مرأى عرائس النيل المخدرات ينزحن فى سبيل العلم والوطن .

ايه يا فتياتنا ان الوطن المتحفز للحياة يرسل أبناءه فى سبيله جيلاً بعد جيل فتفنى الأجيال لرفعته وهو خالد، ويرقى على مجهودات أبنائه التى تتكدس تحت قدميه وهو صاعد .

إيه يا بنات النيل سلام عليكن ما حفظتن للنيل عهده . وأديتن الأمانة وشرفتن الكنانة .

سلام عليكن ما قدرتن الشرف والوطن وان الوطن بمن فيه من فتيان وشيب فداء لشرف فتياته وأمهاته .

*
* *

لا تنسين تلك الأوراد التى قرأها لكن الأمهات قبل أن تبرحن أرض مصر . ولا تحقرن تلك التمائم التى أوصاكن بها أمهاتكن الطيبات الصالحات ، واتلون تلك الأدعية التى أوصيتن

بتلاوتها ! ! أتدرين ماذا تفيد تلك الأوراد ولأى شيء ترمز حقاً تلك التمائم ؟ ؟

إنها ستصرخ فى آذانكن بأنكن من قوم لهم ماض وتقاليد وان للماضى عليكن ان تطورنه ولكن لا تحقرنه .

*
* *

يا فتياتنا المبعوثات من مصر وخير مصر ، انكن ترسلن إلى بلاد طالما حاكى نساؤنا نساءها فيما لا ينفع فحاكينهن أنتن فيما ينفع واقدمن الينا بما يفيد .

قد تقنع منكن بالقليل من العلم الناضج الصافى ، ولكن لا نرضى أن تقدمن الينا إلا بالكرامة كلها ، وبالشرف كله ، فارجعن به كاملاً أو متن فى سبيله .

القاهرة فى ٣ من اكتوبر سنة ١٩٢٥

حول الديموقراطية

لصغار اليوم ورجال الغد

يوم الخميس ، أمس الأول ، كان عليّ أن ألقى درساً فى مدرسة المعلمين وفى ساعة يعقبها انصراف الطلاب إلى دورهم . وما هو إلا أن ألقيت درسى حتى انحدرت إلى منزلى من غير إبطاء . وبينما أنا فى طريق مسرعاً ، إذ حانت منى التفاتة عند مدرسة المنيرة الابتدائية ، فوجدت سرباً من صغار التلاميذ يحومون حول شاب طويل القامة ، رث الثياب ، قاتم اللون يتحرك بينهم حركات تنم عن ضجر ، دون أن تبدو على وجهه الأشعث الأغبر علامات الغضب ، بل كان يبدو فى ثنايا سحنته المظلمة البائسة شيء من العطف غير يسير . وكأن هؤلاء الصبية يحومون حوله كما يحوم النحل حول شجرة باسقة ، ولأصواتهم أزيز يشبه أزيزه ، ويرسلون أكفهم الصغيرة لشيء بين كفيه الضخمتين القويتين إرسال من يريد أن يخطف شيئاً عز عليه أن يناله .

*
* *

مر بنفسى خاطر من السوء نحو هذا الفتى الوضيع طبقة فى عرف الناس ، ودفعتنى عواطف أبوية ، بل دفعتنى مهنة المعلم الى أن أقصد إلى هذا الجمع من التلاميذ لأتبين سره وغايته ، وأعمل عندئذ بما يوحيه الى واجب المرشد إزاء ما يستجلى من أمر .

لما تقدمت الى الجمع صاح الفتى « الديموقراطى » بصوت أجش : إنها مثتان ! ! مثتان قد نفدتا فى هذا المكان . والله انها مثتان ! وأصوات الصغار تردد متقاطعة : هات واحدة . بل هات واحدة . انا لم نأخذ منك ولا واحدة !

ولما رآنى الفتى مقبلاً عليه مد الى يمينه من فوق رؤوس هذا الجمع بشىء مما معه ، فتبينت إذ ذاك أنها كراسة بيضاء عليها إعلان لاحدى دور الصور المتحركة ، وان الصغار يتهافتون ليصيبوا من هذه الكراسات التى توزع بلا ثمن ، وان الفتى المنكود المكدود يقوم بماسخر له من توزيع الاعلان بذمة ونشاط .

*
* *

حينئذ بدد ضياء الحقيقة ما هجس فى خاطرى من سوء الظن ، وفاضت نفسى بعطف سابغ حول هذا الجمع البرىء ،

وتمنيت لهؤلاء الصبية الصغار الذين هم عقول المستقبل ، وضياؤه وعدته ، أن يدنيهم هذا المستقبل من ذوى الأذرع العاملة المنتجين ، فيلتفوا حيال الديموقراطية ، إيمانا بما عندها من خير وثمر ، كما يلتفون اليوم حول واحد من ممثليها التعساء ، ويتخاطفون بغبطة ما تمده اليهم يده المنتجة العاملة ! !

القاهرة فى ٧ من نوفبر سنة ١٩٢٥

فكر سجين

بعد يوم كد فيه الذهن ونصب ، وبعد ليل قضيت بعضه فى حوار عنيف يثير فى النفس هماً ويغريها بجهود . عدت إلى دارى بنصيب من الحمى لا أدرى أهو عند أهل الطب ما يسمونه حمى الأوصاب ، أم هو ضرب من ضروب الاضطراب ، تلقيه إلى جنبات هذا الجسم أمواج فى النفس فتظهر ما فى قرارها من عناصر الألم ، والاشمئزاز ، والثورة على ما يغيظ ويوجع من حوادث هذا الوجود .

*
* *

عملت الحمى عملها من العبث براحتى ، وصدت النوم عن جفون كانت فى حاجة إلى أن تنطبق عليه . ولبعض أنواع الحمى نسيج من الذكريات والتفكيرات طالما تشابهت مع ألوان من الهذيان ، دون أن تكون عناصرها حقاً من الهذيان . لكنها أمور قد تكونت من آثار الحياة الواقعة ، وتسربت إلى أعماق النفس ، ثم توارت فى هذه الأعماق ، واستكنت فيها زمناً والعقل فى غفلة عنها ، ثم طفقت تحت تأثير عارض من الأعراض وكثيراً

ما تعين بعض أعراض الحمى على ظهورها ، وكثيراً ما يكون القلم الدقيق أداة لاقتناصها .

*
* *

كان أول ما شعرت به طافياً فى النفس بعد غفوة من غفوات آخر الليل شبح الحرية ، وصورة الحياة الحرة ، واستدعت تلك الصورة معها ما قد يعتور الحرية من عقبات تحول بينها وبين عشاقها وأنصارها ، فظهرت أمامى تلك القيود التى تشد القلم وتثنيه عن الكتابة فيما يذهب إليه ، ومثلت أمامى تلك العقد التى تعقد اللسان وتلويه دون قصده من الحديث فيما يريد ، وصورت أمامى تلك الحواجز والاعتبارات التى طالما حالت بين الإنسان وبين ما ينزع اليه من أقوال وأعمال .

وما كان أفظعها من صور وأنا فى الليل وبين الوحدة والهم والألم ! !

حوادث تمر علينا سراعاً والحياة تمضى سريعة ، فوددت لو ظفرت بالأسباب التى تهيء لى أن أسجل عن تلك الحوادث رأياً . لكنْ ما فى النفس من رأى يحتبس كما تحتبس الزفرات فى عين المغيظ .

*
* *

تركت فراشي وأشعلت النور ، وتحولت إلى حيث تكون الدواة والقرطاس ، وجلست جلسة المتحفز للكتابة ، وقلت فى نفسى لن تثنيني قيود الوظائف ، ولن تثنيني آراء الناس عن أن اكتب ، وأن أتكلم ، وأن أذكر ما يختلج فى نفسى وأن أظهر ما انطوى فى الضمير ، ثم أخذت فى الكتابة وكان القلم مجداً مسرعاً فى كلمات تحوم حول ذلك المعنى : لم تقيدون الحرية ولا تخلونها ولا تشعرون بخيرها وبركاتها وهى تسير فى الأمم سير الحياة فى النبت الزاهى فتجعل فى الوجود ابتساماً ؟ .

وبعد أن مضيت فى الكتابة على هذه النغمة عدت فتذكرت ان للجرائد قيوداً ، وان للكتابة قيوداً ، وأن ما أريد أن اكتبه قد يدخل فى دائرة تلك القيود القاسية ، فمزقت ما كتبت وعدت إلى سريرى ثم قلت فى نفسى : سأعقد اجتماعاً لأتكلم وسأسير بلسانى فى المجالس فأذكر ما أريد أن أذكر ، وأبشر بما أريد أن أبشر به ، وأدعو إلى ما أريد .

على أنى تذكرت أن فى المجالس عيوناً طالما سعت بالناس

إلى الشر ، وطالما أساءت إلى البريئين من حيث لم يكونوا يحسبون لها حسابًا .

رباه ولكن في النفس آراء محتبسة تريد أن تجد لها في الخارج متنفساً والخارج وا أسفاه تملؤه الحواجز والعقبات وتحده الحدود .

* * *

ثم أخذت أحاسب نفسي وأقول أهو حرص على مال ، أم هو حب في منصب ، أم هو اندفاع في سبيل لذائذ الدنيا ، أم هو خضوع لحاجاتها وترهاتها ، كل ذلك ألهانا عن أن نسير في الآفاق لتامس الحياة الحرة حيث تكون .

ثم قلت في نفسي إني أصبحت قادراً على أن أباعد بيني وبين كل شيء ، وأن أترك كل عزيز ، وأباين هذه الدنيا ، لكني تذكرت أربطة ذهبية ثقيلة تربط رجلي ، وتجعلني أحن الى حياتي التي أنا عليها وفي سبيلها ألين .

* * *

شعرت بضعف الجسمي ، وبالحرارة والاضطراب ، وبالأفكار المحتبسة تضغط صدري وكان الفجر على وشك أن يحين ، وفي أفق السماء نجم متلألئ كأنه يشير الى أن لا حرية في هذه

الأرض، وكأنى كنت أخاطبها قائلاً متى يا كواكب السماء وأنت تبدين لأبصارنا منيرة ، ولآمالنا رموزاً لعوالم لا يشوبها الفساد ، متى يا نجوم الليل تطلق نفوسنا السجينة من سجونها وقيودها ونعيش فى عالم مرتفع حر شبيه بعالمك السماوى المنير ؟

القاهرة فى ٢٨ من نوفمبر سنة ١٩٢٥

صورة من صور النفاق

على شفتيه ابتسامة وأسارير وجهه مشدودة ليبدو منها لون من ألوان الاشراق ، ويلوح على محياه طلاء من البشر. لكن فى قلبه سواد ، و بين جنبيه عتمة وسحاب ، وفى صدره إفراز من الخبث ينفثه فى حديثه كما تنفث الأفاعى سمومها فى الماء النمير.

هو فى ساحة الأمير يدعو للأمير بالنصر والتأييد ، ويتشدق بمظاهر الحب والولاء ، وهو فى حضرة الوزير يقول لقد انفرد مولاى بالاصلاح، ولم يتخذ لاعماله إلا مدارج الفلاح، فإذا هوى عن ساحة الأمير، وانحدر عن حضرة الوزير ، أخذ يهجو مع الهاجين وينتقد مع الناقدين .

قد تجده أحياناً يختلف إلى القهوات والمجالس ليختلط بمن لا يحب ولا يتفق واياهم من الناس فيسايرهم ، ويلاين فى القول كأنه فى اغتباط ، وتحول أضواء ابتسامته البراقة بين فراسة محدثيه و بين أن يروا ما ظل فى أعماق نفسه مستوراً .

تلك هى صورة المنافق الذى يبدو فى الحياة بلونين ، ويتشبه بشبهين ، ويبدو ظاهره مغايراً لباطنه .

يقطع المنافق فى هذه الحياة ما شاء الله أن يقطعه من العمر،

زاعماً أنه عاش طوال هذه السنين حقاً ، وينسى أنه فى وقت نفاقه حين يظهر النفس على غير حقيقتها وسجيتها يحكم على نفسه بالاعدام ، وذلك لأن شخصه الصحيح المطبوع قد يتوارى عن الوجود أثناء مظهر شخصه المعتل المصنوع ، الذى يبكى بينما يريد الشخص الحقيقى أن يضحك ، ويمدح بينما يريد الشخص الأصيل أن يقدح ، ويضمر بينما يريد الشخص المطبوع أن يذيع ويظهر.

*
* *

يحسب المسكين أن نواحى الحياة الاجتماعية لا يلتئم وإياها إلا بعض المواقف التى يظهر فيها المرء على غير فطرته ، وينسى أنه ومن على شاكلته هم الذين يهيئون فى الحياة الاجتماعية تلك النواحى التى قد يفوز فيها المنافق ، ويدحر فيها الصادق .

وقد يقول لك أحياناً على نحو ما يقول بعض علماء النفس والاجتماع : أن حياة الجماعة قد تقتضى فى كثير من شئونها بالضرورة أن ينزل الانسان عن بعض شخصيته ورأيه ويداجى لكن يفوته أنه ينبغى للانسان ألاّ يقنع بكل ما فى الحياة الاجتماعية على ما هو عليه ، ولكن يجب على الانسان الرفيع أن ينظر إلى الحياة على ما ينبغى أن تكون عليه .

قد يكون من أخلاق البهائم أن تسير على السبيل المطروق وتنتحي النحو المهيأ ، لكن من خلق الإنسان الممتاز أن يستكشف في حياته سبلاً غير التي تألفها الجماعات والاحشاد المنحطة . وأنه يرى في أفق هذا السبيل كوكب الكمال متلألئا لامعا .

حياة الإنسان هي شخصيته ، وشخصية الانسان هي مجموعة ما انطوت عليه نفسه من آراء ، ومشاعر ، ودرجات من النشاط ، وحياة الإنسان هي غاية لنفسها وليست وسيلة لشيء مجمع على حقيقته في هذه الحياة .

فلماذا إذن يغير الانسان ما في نفسه من أفكار لأفكار أخرى ؟ ولماذا يستبدل بعواطفه التي تشبعت بها سجيته عواطف أخرى ، ولماذا يزيف إرادته التي تلتئم وطبيعته وعواطفه ويتخذ إرادة مغايرة لها ؟ ؟

أيها المنافقون — اعملوا على أن تظهروا على حقيقتكم ، وكونوا كما أنتم ، وعيشوا بوجدانكم ، فذلك أحرى بأن يجعل لكم من الحياة حياة ، والا فالنفاق يجعل بعض العمر نوعاً من الموت هو أحط أنواع الموت لو كنتم تعقلون .

القاهرة في ٥ من ديسمبر سنة ١٩٢٥

صورة من صور التقلب

« مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء »

زيد من الناس قد يكون ربعة القوام ، يضرب لونه إلى الطين الطفلى ، وقد يكون طويلاً أو قصيراً ، قاتم اللون أو أقرب الى الدكنة ، وقد يكون أبيض ، وقد يكون على كل لون شئت ، أو من أى مقياس ، لأن نوع المتقلبين عديد الأشخاص كثير الوجوه .

لكن زيداً نبيه يفهم ما يلقى اليه سريعاً ، ظريف لأنه متناسب الخلقة والوضع ، وقلما تغادر شفتيه الابتسامة الوديعة الهادئة . ليس بالمشغوف بالأدب ، وهو على ذلك يحرص على حفظ أبيات من الشعر وبعض أمثال ، وكلها لا يعدو المعنى الذى تستطيع أن تخرجه من ذلك الشطر : « ودر مع الدهر كيف دارا » فكأن الأصل فى فلسفة زيد هذا وثقافته أن يعلم المرء كيف يتقلب ويدور .

*
* *

كان من الذين متوا الى الحزب الوطنى بسبب يوم كان لرجال

ذلك الحزب الصولة والدولة . وكان مع الوفديين فى وقت ما ، وقد أكل خبزاً وملحاً مع الديموقراطيين ، وتعاقد مع الدستوريين والتحم بالاتحاديين . لم يتصل بحزب من هذه الأحزاب إلاساعة ظن أن لهذا الحزب شأناً ونفوذاً ، وقد يكون لرجاله كلمة ومقام! ما أكثر أنداد زيد فى الدنيا من الذين يسيرون وراء مصلحتهم أو من الذين يستخفون بالسلوك المستقيم وسننه ، أو من الاخساء الذين يتعلقون بمن يقوى ويفرون ممن ضعف .

على أن الذى يسلينى من أمور زيد هو أسلوبه فى محاوراته ، وبعض أحاديثه ومداوراته ، فى وقت يحسب فيه أن دولة حزب من الأحزاب كادت تدول ، وأن حزباً آخر كاد حاله الى المجد يحول ، أو أن عزيز قوم قد آن له أن يضمحل ، وأن ينال مكانه رجل كان من الذين محيت اسماؤهم من الكتاب وآن لاسمه أن فيه ويصير من النابهين .

فى ذلك الوقت يقلل زيد اختلاطه بمن كان يلابسهم كثيراً من هؤلاء الذين آن للمجد أن ينصرف عنهم ، وإذا جلس بالمجالس سمعته يقول هذا بلد لا خير فيه وليس فيه الخير ، وليس الخير فيه ، والخير لا يكون فيه ، وما الى ذلك من عبارات مكررة

ومعان واحدة تكاد تبغضك الى كل بلد وتكاد تكرهك فى كل جماعة وفئة .

وفى ذلك الوقت يشرع فى أن يشد الحبل بينه وبين هؤلاء الذين كان قد ارتخى الحبل عندهم من زمن مضى ، ويشرع فى أحاديثه بذكر بعض حسناتهم التى كانت فى رحمة الله منطوية ويتهز فرصة سانحة ليرافق صديقاً لزيارة هؤلاء الذين سيصبحون عما قريب أولياءه ويصبح وليهم . وإنك لتعجب من جرأته عند ما يسوق لمن يحسبهم أولياء المستقبل القريب مظاهر الود وآيات التبسط ، ومن تحدثه معهم فى شئونهم الحزبية كأنه واحد منهم ولا تدهش إذا سمعته يقول أمامهم ينبغى أن تكون خطتنا إزاء خصومنا هى كذا وكذا وأن تكون أعمالنا لاصلاح شئوننا هى كذا وكذا بصوت تملؤه الحماسة .

لا تدهش من أمثال هذا يوم تراه أوتوقراطياً ، ويوم تراه ديموقراطياً ، ويوم تراه انكليزياً ، ويوم تراه وطنياً . ويوم تراه ولياً . ويوم تراه عصياً .

هو كل شىء ؛ لأن حكمته البالغة « ودر مع الدهر كيف دارا» ولأنه يجد من الفطنة والذكاء أن يتخذ المرء لكل حالة لبوسها

*
* *

إن المتقلب لا يقدر قيمة الحياة إلا بمقدار ما يكسبه الإنسان فيها من وجاهة المظهر، وزيادة الثروة، والتنكب عن العقبات، ولا أنكر عليه أن الوجاهة والرزق والراحة من الخيرات التى لا تهون ؛ لكنى أنكر عليه الجهل بأن فى الوجود خيراً آخر اسمه الخير الخلق يتلخص فى حسن تقدير الناس للناس، وفى راحة الضمير وأن لذة هذا الخير قد تربى على لذة ما يطلبه من مال ووجاهة وراحة .

*
* *

أنكر على المتقلب ما أنكر وأعجب لأصحاب المبادىء كيف يلقى المتقلبون فى رحابهم سهلاً ، وكيف يجدون فى الحياة الاجتماعية أهلا .

أستغفر الله قد تساورنى الوساوس فأقول الناس عندنا أما غافل يستخدمه المتقلبون ، وأما متقلبون بالقوة والاستعداد فهم يأنسون بالمتقلبين بالفعل والحركة .

القاهرة فى ١٢ من ديسمبر سنة ١٩٢٥

سعادة الباشا
أو
صورة من صور التصنع

من الناس من يهيء له القضاء أسباباً ليتصف بصفات النبالة والشرف فما يبطنه مما تخفى النفوس نبيل ، وما يظهره مما تبديه الجوارح لطيف ظريف ، وهؤلاء هم الأشراف حقاً ولو لم يكونوا من طبقة الأشراف عرفاً واصطلاحاً .

ومن الناس من ينشأ فظاً فيما يعلن ، مرذولاً فيما يسر ، فتعاف مظهره ومخبره معاً ، فهو حقاً من الطغام رغم وفرة نعمه ، وكثرة خدمه ، وحسن ثيابه . ومختلف ألقابه .

وذلك لأن النبالة الحقة صفة من صفات النفس ، وان مظاهرها من الحركات الخارجية لا تؤثر أثرها الصالح فى الناس ، ولا تقع وقعها الحسن إلا اذا كانت ترجمة مطابقة لما فى النفس الشريفة من معانى الشرف وبواعثه .

*
* *

واليك وصف نبيل من نبلاء العرف لم يجعله الله ليكون نبيلاً ، ولكن الزمان الأعمى حشره فى زمرة ذوى الألقاب من أهل الشرف !

عرفت ذلك الباشا منذ كان طفلاً فكان يأكل كما تأكل الأطفال من أبناء طبقته، ويفرح كما يفرحون، ويحزن كما يحزنون، فيه وداعة البساطة، فاذا حزن ظهر عليه حزنه، وإذا غضب بدا عليه غضبه.

ذهب الى المدرسة وجد واجتهد، وجاز عليه كل ما يجوز على التلاميذ من حيل، وفوز، وآمال، ومثوبة، وعقوبة. وبعد أن جاز دور التلمذة ارتقى سريعاً الى درجات أرباب المناصب المميزين، ثم حبي الرتب، ثم منح الألقاب، وخلاصة القول أن صديقنا الطفل الوديع المتواضع حسباً وحالاً أصبح شخصاً آخر. أصبح مولاى الباشا . . .

ومولاى الباشا تعلم من غير حذق كيف يهتز فى مشيته معجباً، وكيف يحيي أقرانه القدماء من أصحاب « الحضرة » بنوع من البسمات الحائرة التى توهمك أنها تهبط عليهم من الأفق الأعلى، وكيف أصبح يحيي زملاءه أصحاب « السعادة » بنوع من الابتسامات المترققة المتظرفة التى لا تطابق فى صناعتها صناعة الله لوجهه القاتم وشفتيه الغليظتين!

أصبح لمولاى الباشا بطن ولقد كان رفيق الطفل لا بطن له ، وأصبح صوت سعادته يتشعب عند خروجه فبعضه يخرج من الأنف الشامخ ، وبعضه يخرج من حلق مقبوض العضلات ، وقد تسمع من صوته المتوزع بين نبرات الغرور ، والادعاء ، والتعاظم ، رنات تشبه نغمة التؤدة والرزانة والوقار ، كان مولاى يوهمك فى تباطؤ أن كلماته ذهبية تتثاقل فى تتابعها لما فيها من النفاسة والحكم . . .

أين ذلك الصوت الماضى الذى لم يكن فيه تكلف ولا صناعة وكان يخرج كأنه حديث القلب السليم ؟ وأين تلك المشية الخفيفة التى حلت مكانها المشية المتثاقلة ؟ وأين ذلك الاطمئنان والسكون الذى كان لعضلات رقبته ووجهه ، فحل محله التقلص والتصعير ؟ وأين ذلك الهندام البسيط وقد حل محله نوع من الاناقة والتجمل لا يتناسبان وسحنته البغيضة .

*
* *

أشفق على مولاى الباشا أن تعتاد حنجرته وأرجله وعضلاته ونظراته ما لا يلائمها من الطبع ، ويصبح مثله مثل الذى يدع صنعه الذى يليق به ويشا كله ويطلب غيره فلا يدركه ، ولذلك

الأيد عليه ما قرأه وقرأناه فى كتاب « كليلة ودمنة » فى باب « الناسك والضيف »

« زعموا أن غراباً رأى حجلة تدرج وتمشى فأعجبته مشيتها ، وطمع أن يتعلمها ، فراض على ذلك نفسه ، فلم يقدر على إحكامها وأيس منها وأراد أن يعود الى مشيته التى كان عليها ، فإذا هو قد اختلط وتخلع فى مشيته وصار أقبح الطيور مشياً . » . . .

*
* *

مولاى : خفف عن نفسك غلواء شخصيتك الموهومة ، وكن كما أراد الله أن تكون عليه مما يلتئم مع شكلك ومما يتفق مع ما راضك عليه آباؤك وأجدادك ، واعلم أن من لبس ثوباً ضافياً فقد يتعثر، ومن لا يحذر مخاطر التعالى فقد يتدهور .

السبت فى ١٩ من ديسمبر سنة ١٩٢٥

لعــام ١٩٢٦

إيه يا عام أقبل على الوجود كما أقبل عليه غيرك . فانك قد تلقى فى سماوات الصباح شموساً نيرة ،وفى سماوات الليل نجوماً متلألئة. وقد تجد كما وجد غيرك زهرة تتفتح عن أريج تنشره عطراً فى الصبح إذا تنفس . وقد تجد كما وجد غيرك طائراً أنيقاً يستقبل فجرك بالتغريد . وقد تجد عبداً من عباد الله ناسكاً يحييك بدعوات وصلوات . وقد تجد نواة فى جوف الأرض تتمخض عن حياة . وقد تجد حياة فى داخل الأرحام تحفز للوجود . وقد تجد فكراً فى داخل النفوس يتوثب للظهور، وعواطف فى حنايا القلوب تفيض حباً وحنيناً .

*
* *

ولكن . . . ولـكن قد تجد أيها العام مع مظاهر السعادة ، والنور، والحياة ، خليطاً من مظاهر الشقوة ، والظلمة ، والعدم .

إن رأيت على الأرض زهوراً ، فقد ترى على الأرض قبوراً . وإن رأيت شفتين انفرجتا عن الابتسام ، فقد ترى شقين شدا من سقام وآلام . وان تسمعت من بعض الأفئدة حنيناً ، فقد تسمع من أفئدة أخرى أنيناً . وان وجدت فى ناحية من نواحى

الأرض عدلاً ورحمة ، فقد تجد فى بعض نواحى الأرض ظلما ونقمة . وإن وجدت بطوناً تدفع ، فقد تجد أرضاً تبلع . وإن وجدت فى ناحية من الربوات عيون النرجس يبللها الندى ، فكم تجد من عيون سليمة تبللها الدموع .

*
* *

ولم أشأ يا عام أن ألقاك كما يلقاك الشباب فى المراقص والأفراح ، بين قبلات طاهرة أو قبلات فاجرة ، ولم أشأ أن ألقاك يا عام فى مجلس الصهباء بين قرع القوارير أو رنين الطاس والكاس. ولم أشأ أن ألقاك يا عام حيث يفزع العبد لمولاه ، وحيث يستغفره ويترضاه . وآثرت أن ألقاك فى الأمس الأول فى غرفتى ، وحدى ، وبين حيطان أربع ، لأتحدث اليك فى انفراد ، وأحاسبك فى نفسى عن غير غل أو عناد .

شعرات بيضاء أخذت تنبت فى الرأس وبعضها يتجه نحو الأرض ، وبعضها يتوجه للسماء ، رمزاً الى أنك أيتها الأيام تدنين الخلائق الى أصولها فى الأرض وفى السماء ! ! وأعصاب تراخت ! وعضل قد تصلب ! وعظام يبست ! وفى سبيل الخير ضعف العصب والعضل والعظام .

لكنك أيتها الأيام وان استطعت النيل من جسومنا فقد صان لنا الله من عبثك العرض والكرامة فارحلى عنا بما ترحلين، واقدمى علينا بما به تقدمين . فلا حقد عليك لما تسلبين ، ولا خوف ولا رجاء مما وفيما تحملين .

إيه يا عام لقد تولد فى مجراك نفوس بريئة غافلة عما تخفيه لها لياليك، جاهلة بما تحفظه لها أيامك. وإذا بك وأنت تعمل خلف بسماتك الماكرة لتخفى لتلك النفوس البريئة فى مكامن السبل طوالع النحس أو طوالع السعود .

فكم من الناس زهت لهم الأمانى ، وتلألأت لهم الآمال ، فخدعتهم عن تلك الأمانى، واطفأت أمام أعينهم نور الآمال ! !
وكم من الناس حولت لهم العيش المنكود نعيماً وأحلت لهم النار برداً وسلاماً .

فيا أيها العام إن غرك سلطانك ، وإن كبر لديك فى نفسك شأنك . فاذكر حكمة سليمان « باطلة الأباطيل وكل شىء غير الله باطل » .

الأحد فى ٣ من يناير سنة ١٩٢٦

عند اطلال طيبة

(١)

انتقلت مع فريق من طلاب مدرسة المعلمين من مدينة الاقصر إلى الشاطىء الغربي للنهر المبارك لأرى ما أبقى الدهر من معابد ومقابر، ولأطوف طوفة حول ما أبقى الأوائل للأواخر، فقطعنا طريقاً ممدودة بين حقول من العدس والحنطة ومما ينبت النيل العزيز.

*
* *

كان يحد النظر جبل «القرنة» وهو جبل جيرى غير مرتفع تواترت عليه مؤثرات الأكوان والأزمان فاغبر لونه، ويكاد الناظر يراه أفقياً . وكنا كلما دنونا منه بدا للطرف تمثالا « أمينوفيس » كالأشباح الهائلة يشقان من الفضاء الى السماء شقاً سنجابياً يتقيد عنده البصر، ولقد خيل الى أن التمثالين العظيمين انما نصبا للإشراف على هذا الفضاء الواسع، وليملآه رهبة وعزة، ويستوقفا كل من يمر بهما ليحييهما قائلا :

سلام عليكما أيها الشاهدان على عز غابر، وبأس حاضر، لقد تعاقبت عليكما الليالى والأيام، وتخلفت عند قدميكما الحقب

والأعوام ، وانصبت فوق رأسيكما أضواء الشمس الضحوك وعتمة الظلام . سلام عليكما لقد هبت فى وجهيكما لوافح الرياح وتبللت عيونكما بطل الصباح ، وابتسم الدهر تارة حولكما فى هذه الديار فعمتها العظمة ، وقطب حاجبيه لها تارة أخرى فتوالت عليها المحن والنقمة . كل ذلك وأنتما صامتان لا تحركان تشعران بعظمة كانت ثم مضت ، وعزة تولت وانقضت . وماض جد عظيم . وتاريخ ثم مقيم .

سلام عليكما من كل عابر ، ومن كل ذاكر .

*
* *

ثم تذكرت فى سبيلى الى زيارة الآثار اننى منذ بضع سنين ، قد قطعت طريقاً فى بلاد اليونان لمعابد « دلفوس » يقرب شبهاً من الطريق الذى قطعته فى الأسبوع الماضى وينتهى ذلك الطريق الذى يتلوى ويهبط ويصعد بين مزارع الأعناب والزيتون الى واد سحيق ، وجبل صخرى منعزل ، كانت شيدت عنده بيوت آلهتهم ومنازل السحرة والناسكين فيما سلف .

ثم تذكرت والذكرى تبعث الذكرى أديرة الرهبان النائية ، وصوامع المنقطعين للعبادة النازحين فمر بخاطرى عندئذ أن أنظر بين عهدين من عهود التاريخ . وحالتين من أحوال النفس البشرية

مر بخاطرى أن أنظر بين العهد الغابر ، والعهد الحاضر . وبين النفس المتصلة بالملأ الأعلى والنفس المتصلة بشؤون الدنيا .

لقد كان العهد القديم يعنى بالمعابد والقبور لأنه كان عهد الله وعهد الأديان ، فتخير لآثاره ومشيداته كل مكان تكتنفه الرهبة ، وقصد الى كل ناحية تشملها السكينة والقرار والهيبة. وحيث وجد المكان منسجماً مع نزعته الربانية شاد لدينه وآخرته وأعرض عن دنياه .

أما العهد الحديث فهو عهد دنيوى فقد جعل آثاره فى المصانع والمتاجر وشادها حيث تسهل المواصلات ، وتقضى الحاجات وتدر الأموال ، وتكثر الأعمال ، فحيث وجد المكان والزمان ملائمًا لابراز نزعته المادية من مصالح الحياة شاد للأرض وعمر ، ونسى ربه فى السماء وتكبر.

ولو جاز لنا أن نتنبأ بأمر المستقبل لقلنا ستكون آيته المصنع والمتجر ، وأما الماضى فآيته المعبد والمقبر.

أن نفس الإنسان الذى مضى كانت تهيم بعالم البقاء ، وتعاف الفناء ، وأما نفس الانسان الحاضر فانها أعلق بعالم الشهادة وأدرى بالمنافع ، وألصق بالواقع .

إنسان الماضى سماوى ، وإنسان الحاضر أرضى ، فهل حقاً هبط آدم وأبناؤه إلى الأرض من السماء ؟؟!!

(٢)
الكرنك

. . . وذهبت فى ليلة مقمرة الى معبد الكرنك . وفى الليل تطيب التأملات ، وفى ضوء البدر المنتشر فى السموات والأرض ما قد يأخذ بالنفس العانية الى نوع من الارتياح والانشراح ، وبين الأطلال البالية حيث تصيح البوم صيحاتها ، وتئن أناتها ، ما قد يوحى الى النفس خشية الوحشة ، ورهبة العدم ، وبين الأروقة الواسعة ، والعمد الضخمة المرفوعة ، والتماثيل الموضوعة والأفنية المنبسطة التى تسمع من خلالها دبيب هوام الأرض وخشاشها ما قد يدعو الى سكينة فى النفس واحترام يخامره الإعجاب والدهش .

*
* *

هناك فى تلك الليلة البيضاء بين تلك الأروقة ، وعند تلك الأعمدة ، وفى هاتيك الأفنية ، شعرت نفسى بحاجة إلى التأمل وحالة من الارتيـاح ، والهيبة وتقدير العظمة . وقد يفعل هذا المزيج من الانفعالات فعل السحر أحياناً . وما السحر إلا ذهول المرء عن الحقائق فتؤخذ نفسه بغير الواقع ، وتتصل بضروب

الخيال ، وتلابس الظنون والأوهام ، فيرى ما لا ترى العيون ، ويسمع ما لا تسمع الآذان ، ويحس ما لا تحسه المشاعر .

***

كثيراً ما يشعر المرء بأثر السحر عند منظر جميل أخاذ ، أو عند نغم مستطاب شجى ، أو عند رؤية ما يروق من مظاهر الكون أو آيات الفن : لكن أثر السحر يختلف باختلاف علله وتباين أسبابه . فتأثير الهياكل والآثار فى النفس لون من السحر يغاير فى نوعه تأثير الأغانى والألحان ، وذلك لأنه يرد النفس إلى الماضى البعيد فترى العين بعين الغابرين ، ويستحيل الذوق إلى ذوق البائدين ، وذلك لأن كل أثر من آثار التاريخ قد يستبق فيما أبقاه عبقرية من شادوه ، وذكرى من أقاموه ، وحس من هيأوه ، وإن شئت فقل خلاصة تاريخهم الناطق ، وان شئت فقل أرواحهم الحائمة . وقد تجتاز هذه المعانى جميعاً نفوس الزائرين فتتأثر بها فتصيرها لحظة من جوهر غير جوهر الحاضر ، وتنحرف بها عن تقدير الحال فتنساه ، ولذلك قد يرى الإنسان عصراً غير عصره ، وينظر بنظر غير نظره ، ولعل السر كل السر فى زيارة الآثار أن يتعلم الزائر كيف يستغرق بشعوره فى شعور الماضين ، ويتمثلهم زماناً ومكاناً .

ولقد اختبرت فى نفسى فيما مضى أثر الفن اليونانى القديم فى وقفة وقفتها با « الاكروبول » فى ليلة قمراء فكنت أحسب أن الأعمدة المنحوتة من المرمر المسنون ، و بقايا التماثيل والأحجار التى ينساح عليها الضوء الفضى الخالص ، كلها تبسم ، وكأنى كنت أرى أشباحاً من البشر الضحوك تصب الخمور ، وترسل الأنغام ، وتدير المراقص ، وتنشد أناشيد الجمال .

ومن نحو أسبوعين قد اختبرت فى نفسى أثر الفن المصرى فى «الكرنك» فشعرت بالسحر فى ساحاتك يا آمون ، فخلت أن الكهنة بمسوحهم يحملون السفن المقدسة ويطوفون ويرتلون ويتمتمون . وخلت أن عظيماً من «الرمامسة» تتزلزل الأرض لجبروته وتتلألأ السماء فوق عرشه ، ويصيح بالناس وهم سجد خشوع ، أنا ربكم ، ولى أرض مصر ، ولى فيها الحصون والخلود .

*
* *

ايه يا مبيد السالفين ، يارب العالمين . ايه يا حقيقة فوق الحقائق ، ويا ملء الآفاق ومبدع الخلائق . إن يكن الإنسان وهو ذلك المخلوق الضعيف الذى توزن كلماته ، ويحد زمانه ،

ويقاس مكانه . ليس فى مقدوره إلا أن يلهج بعظمتك حقاً فى معبار حروفه ، وقدر زمانه ، ومحدود مكانه ، فصورك أحياناً من منحوت المحاجر ، وشاد لمجدك العمائر ، وصاغك من صلب المعادن ، وشكلك من باسق الأشجار ، وتطلع إلى وجهك فى اشراق الشموس والأقمار ، ودعاك بأسماء مهما اختلفت مقاطيعها وعباراتها فما هى الا موجات من موجات الاهتزاز ، فأنت أنت وان تباينوا فى تعيين صفاتك وأسمائك أنت أنت رب الأرباب الذى تشعر النفس ساعة صعودها وصفوها بعظمته وربوبيته ، وأبديته وسرمديته .

*
* *

وكان ضوء القمر الفضى مموهاً بشىء من زرقة «الجرانيت» وكنت أكاد فى ذهولى لا أشعر إلا بمعانى العظمة والجلال . ولكنها التفاتة بدت منى الى السماء الواسعة اذ كانت الشعرى تتلألأ فى كبدها ، وتتوهج، فكانت كأنها كلمة الله الأعلى تقول لمن سحرته عظمة فرعون وفتنه فنه : إن عظمة الله فى السماء فوق كل عظمة وفنه فوق كل فن .

القاهرة فى ٢٠ من مارس سنة ١٩٢٦

ايام العيد الفائتة

هى أيام كتلك التى تأتى بها دورة الفلك ، فتطلع فيها الشمس فى متنفس الصباح ، وتغرب فيها كذلك عند مقدم الليل وحلول الدجى .

وهى أيام لا يصيب فيها الأرض إلا ما أصابها من الخضوع لسنن الوجود .

وهى أيام لا تتخلف فيها تلك القوة العظيمة التى تشد الأرض فى مدارها حول الشمس ، وتدفع حول الأرض تابعها القمر .

وهى أيام لا يفتأ فيها الندى يتساقط على كؤوس الزهر ، وتجرى فيها الجداول بين الحقول النضرة ، وتغرد فيها الطيور على أفنان الشجر .

وهى أيام قد تتحرك فيها الأصداف وما فيها من لؤلؤ دفين بين طبقات اللجج ، وقد تتحرك فيها الدموع على عزيز طوته الغبراء فى أحشائها .

فهى أيام شأنها إذن فى عالم المحسوس كشأن غيرها من الأيام .

*
* *

لكن فى نظام الكون عالماً معنوياً يرى بعين غير التى ينظر

بها الى ذلك الوجود المحسوس، عالماً لا يخضع لقوانين الأفلاك إذا هى تدور أو إذا هى تمور ، ولا لقوانين الحياة والأحياء إذا هى تنمو أو تحور ، عالماً لا يخضع إلا لقوانين القلوب إذ تذكر وتشعر ، أو تظهر وتضمر. ولقوانين النفوس إذ تميل وتنفر، وتتمنى وتقدر.

* * *

وفى تلك الأيام التى يصطلح الناس على تسميتها أيام العيد ، يتجلى منظر واضح من مظاهر تلك القوانين النفسية قد ينتهى عند تحليل ما يتصل به من طقوس ، ورموز ، وأدعية ، وصلوات ، الى صنوف من الذكريات ، وألوان من الأمال ، وضروب من الانفعالات ، تلفح ريحها الأفراد والأمم وقد تفعل فيهم فعل السحر فتخرجهم عن طورهم المألوف فتصبح أيام العيد كأنها غير سواها من الأيام وكأن شمسها غير الشمس ونسيمها غير النسيم .

* * *

ولقد مرت علينا سنون طيب الله ذكرها من سنين كان فيها القلب باسماً ، والبال ناعماً ، فكنا نشعر بقانون العيد كما يشعرون ونلبس له الجديد كما يلبسون . . . ولكن . . . ولكن الفلك سيار ، والزمن جبار ، فلا هو يبقى الغصن ليناً رطيباً ، ولا هو يبقى القلب للسرور خصيباً .

فأين أنت يا أيام النفوس الفتية ، ويا ليالى الصبا الهنية، أين ؟
أين أنت وقد كنت تجودين على القلب بخصائصك من بحبوحة السرور، وعلى الذهن بسعة الخيال ، ولذائذ الأحلام والآمال . وكنت تجودين بجميل الذكريات . وكنت تجودين بملء الضحكات ، وكثرة البسمات . وكنت تجودين بأحاديث الأنس والجمال .

أين أنت يا تلك الأيام ، أيام العيد ، التى كانت تشرق شموسك دون أن تمر أضواؤها بسحب متلبدة ، وغيوم متعددة ! .

وأين أنت أيها البصيص من النور الوهاج والأمل ، الذى كان يحفز الهمم القوية للنشاط والعمل . أين ! .

سلام على ما مضى وفات ، ونظرة رجاء لما هو آت . وليبارك الله للزهرة المتفتحة فى أيامها وأعوامها ، وللصغير الناشئ فى جديد ثيابه ، وفى عطف أحبابه ، وليغمر بفضله محيا الناس بالسرور ، وقلوبهم بالنور . وليسبغ على نفوسهم أسباب الوئام ، وليهيء للأمة فى سبيلها الرشاد والسلام .

القاهرة فى ١٧ من ابريل سنة ١٩٢٦

التسامح

فى هذا الوقت الذى يحل فيه كدح العام وكده على الجسوم، وتقع فيه ضروب من الأوصاب على العضل والأعصاب، بل فى هذا الوقت الذى قد يشتد فيه القيظ أحياناً، فتذبل الزهور على العيدان، ويشرد فيه الكرى عن الأجفان، بل فى هذا الوقت الذى قد تعرض فيه لنوابنا الكرام ألوان الآراء ويطلب اليهم أنواع الافتاء. بل فى هذا الوقت الذى يذهب فيه الفحول من شيوخنا مذاهب الجدال، وتظهر فى مجالسهم مظاهر النضال، بل فى هذا الوقت الذى تضجر منه النفوس وتسأم فتهيج من الجليل، وتهيج من القليل، أقول فى هذا الوقت يطاب الى عزيز على أن أتحدث الى القراء فى معنى التسامح — وآه لولا التسامح وبلسمه الشافى لالتهبت النفوس من كل مجادلة، أو من كل مبادلة، ولولاه لولاه لجرحت نفوس الناس من التشاد، وتورمت أفئدتهم من الأحقاد، ولولاه لتقطعت أوصال المحبين، وتفرقت جموع المتواصلين، فهو نعمة لولاه لما ظل الخير بين الناس.

ولقد يكون للتسامح غدة روحية جعلها الله فى القلوب لتفرز فيها عصيراً طاهراً يرهمها كلما قرحت من أمور الحياة الاجتماعية

وشئونها القاسية ، ولقد يكون التسامح أدنى الخلال بجدارة ابن آدم الذى سواه ربه وسوى معه ضعفه ونقصه .

يقول أهل الأخلاق إذا كان من حق الإنسان أن يقيد نفسه ويربط عقيدته بما يبدو له حقاً ، وأن يميل عما يظهر له باطلاً ، فمن واجبه كذلك حيال غيره أن يحترم آراء هذا الغير فيما يبدو له حقاً أو باطلاً دون أن يلزم بالاقتناع بحقه أو بمطاوعته فى باطله . ولا يقصر الأمر فى احترام رأى الغير على الرأى المستكن فى النفس ، أو الملابس اللينة وما تخفى الصدور ، لكنه يتناول مظاهر هذا الرأى من قول ينطلق من النفس انطلاقاً الى الحياة الظاهرة ، أو من عمل يتحقق به أمر من أمور هذا الوجود على أن يكون هذا القول أو هذا العمل غير متعارض وحق الغير أو معطل لمسعاه .

ويقول أهل الأخلاق أيضاً : ينبغى ألا يتخذ الإنسان وسائل العنف ، ولا يستخدم ضروب التأثير القاهر ليحول شخصاً عن آرائه وعقائده لعقيدة أخرى ، ولو كانت تلك العقيدة صحيحة سليمة ، وما كان عليها ذلك الشخص معتلة سقيمة ، لكن لكى يأخذ أحدنا غيره الى رأيه ينبغى أن يسلط عليه الحجة برفق ، ويرسل اليه البرهان متيناً ليناً ، ذلك لأن الأدلة والحجج تعمل

فى النفوس عملها ولو كانت مصفحة بالمكابرة لأن الحق ضياء والضوء جذاب بطبعه ، والباطل ظلام ، والظلام بطبعه منفر ممقوت مهما دفعت اليه الأهواء التى تطمس على البصائر وتعمى الأبصار .

قد يخيل للمرء أحياناً أن الاقتناع برأى من الآراء يحمل المقتنع به على الدعاية له بنوع من المغالاة يمت الى عدم التسامح ، وقد يخيل للمرء أحياناً أن الذى يقتنع برأى ولا يبشر به بشدة هو مفرط فى حق عقيدته وإيمانه ، مستخف بمبدأه ورأيه ، لكن لو تأمل الإنسان قليلاً لوجد أن الحرص على تأييد رأى صحيح لا يقتضى الشدة فى وسائل ذلك التأييد ، لأن خير مؤازر للحقيقة نورها الساطع ، وان الحق لشديد بنفسه قوى بأثره وتأثيره .

ولطالما أدى التعصب لرأى من الآراء وعدم التسامح فيما عداه الى القطيعة بين الخلان ؛ وحسب الإنسان ، لكى يتسامح ، أن يذكر أنه مهما بلغ من الوصول الى الحقائق فإن جوهرها المطلق ليس فى حيازته وإنما هو فى حيازة الله ، وحسبه أن يتذكر كذلك أن بعض الحقائق التى تحكمنا ببراهينها وتبهرنا بضيائها قد يسطع من خلفها نور يتضاءل عنده كل ما نرى من ضياء .

ولطالما أدى كذلك تمسك أهل النفوذ والسلطان والحكومات برأى من الآراء مع عدم مراعاة التسامح فيما يخالف هذا الرأى الى تقسيم الأمم شيعاً ، وتمزيقها ألفافاً ، ورياضة بعض على الخنوع والذلة ، وبعض على النفاق ، وبعض آخر على الجمود . وسر عظمة الأمم فى الإباء يبث فى أفرادها ، والصراحة تفيض بين بيئاتها ، والتفكير الحر يعم رؤوس مفكريها .

*
* *

والتسامح فى درجة من درجاته قد يتشكل بصورة العفو عن بعض الزلات والذنوب ، وصفة التسامح من الصفات التى ينسبها السادة أهل الدين والتقوى الى الله واسع الرحمة الغفور . وقد اتخذ الأنبياء والصالحون من التسامح والعفو ما جملوا به شمائلهم فاتصف بالتسامح موسى وقدس التسامح عيسى وعمل بالتسامح محمد حتى لقد ورد فيما يروى من الآثار الإسلامية أن رسول الله العربى لما قدم مكة وضع يديه على باب الكعبة والناس حوله وقال :

لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، ثم قال :

يا معشر قريش ! ؟ ما تقولون ، وما تظنون . فقال قائلهم نقول خيراً ، ونظن خيراً . أخ كريم وابن عم رحيم وقد قدرت . فقال الرسول أقول كما قال أخي يوسف : لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم .

وجدير بالمرء أن يذكر قول من قال :

وخذ من الناس ما تيسر   ودع من الناس ما تعسر
فإنما الناس من زجاج   ان لم ترفق به تكسر

فتسامحوا وتصافوا ان الله يحب المتصافين المتسامحين .

القاهرة فى ١٩ من يونيه سنة ١٩٢٦

للعام الهجرى الجديد

فى ليالى هذا الأسبوع الأول من شهر المحرم رسمت على صفحة السماء أهلة كأنها شقق اللجين تتزايد ثم تتزايد حتى تصبح بدوراً كلما تقدمت ليالى الشهر الى منتصفه ، ثم تتناقص هذه البدور حتى تغيب ، وهكذا تنشأ الأهلة وتنمو فى كل شهر عربى ، وهكذا تتضاءل البدور وتضمحل وتغيب .

ولقد اعتاد الناس أن يستبشروا ببزوغ الهلال ، أول كل شهر عربىّ ، ويدعوا ربا طالما تقبل دعاء المستبشرين أن يهله بالامن والايمان والبر والسلامة ، وأن يجعل الشهر مباركاً عليهم وعلى آلهم وعشرائهم ومن يحبون .

*
* *

وفى هذا الأسبوع من هذا الشهر كم من دعوة عرجت الى السماء من قلب يملؤه الرجاء ، وكم من قبلة ساذجة طاهرة ألقتها أم رءوم على جبين ولدها وهى تنظر الى الهلال باسمة مستبشرة ، وكم من صديق نظر الى وجه صديقه وفاض من عيونهما البشر بعد أن لمحا القمر الناشىء فى الأفق ، وإن وراء هذه الدعوات

وان حول هذه القبلات ، وان خلال هذه البسمات قد يتجلى عطف الله على الناس ورحمته السابغة عليهم ، والله يحب الآملين ويرأف بمن يحسن به الظن من عباده ولا يرضى عن القانطين منهم الذين لا يرجون ولا يتشوقون .

*
* *

فى الأخبار أن الله أوحى الى داود عليه السلام أن أحبنى ، وأحب من يحبنى ، وحببنى الى خلق ، فقال داود يا رب كيف أحببك الى خلقك ؟ قال اذكرنى بالحسن الجميل ، واذكر آلائى وإحسانى وذكرهم ذلك فانهم لا يعرفون منى إلا الجميل .

وقيل ليغفرن الله يوم القيامة مغفرة ما خطرت على قلب أحد حتى أن ابليس ليتطاول لها رجاء أن تصيبه .

وعلى ذلك نستقبل العام الهجرى ونحن نذكر الله ذا الآلاء والرحمة والاحسان . نذكره راجين الخير متفائلين طامعين فى إحسانه وغفرانه ، وما الحياة القيمة إلا بشر ورجاء ، وطموح للخير والعلاء . فأقبل أيها العام الهجرى إذن على بركة الله ورحمته وحنانه فالرحمة يا رب هى أحب صفاتك اليك ، وحسن الظن بك أحب ما تطلبه الى عبادك ، وأنا لنرجو رحمتك ونحسن الظن برحمتك ورأفتك ونرجو عفوك عما سلف .

*
* *

اعتاد الناس أن يهنىء بعضهم بعضاً عند دخول السنة الجديدة وليت شعرى علام يتبادل الناس تلك التهانىء ؟ الأن عاماً أضيف الى العمر فكان كأنه الحجر الجديد يسمو به لتلك الحياة هيكلها ؟ أم لأن العام الجديد مجموعة من التجارب تذكى النفس وتعينها على أن تتكمل ؟ أم يهنئ الناس بعضهم بعضاً فى مستهل الأعوام لأن المرء يجتاز من سبيل العمر مفازة نخرج من مخاوفها سالماً ، وقطع طريقاً فلم يضل فيها ، ولم يك فيها من العاثرين ؟ أم يهنئ الإنسان الإنسان بالزمن الذى انقضى من العمر فأصبح ما سوف يتحمله الإنسان من سنى العيش وانصبه أقل عدداً وأخف أحمالاً وإثقالاً ؟ ! ! !

لو أنصف الناس لحبسوا التهانئ على مافى الحياة من قيم ، وإن عاماً جديداً يفتح سبيله فى عمر الإنسان العاقل الحكيم لهو نعمة من الله قد يستفيد المرء من بركاتها ، ويثقف بعظاتها ، ويرفع النفس بتجاربها وآياتها .

*
* *

. إذا كان لنا أن نستقبلك أيها العام الهجرى الجديد بنوع من أنواع العبادة عملاً بوصية أهل التقى الذين يستحب عندهم بناء السنة على

الخير لكى يكون ذلك أحب وأرجى لدوام بركة الله ، فتقبل منا ربنا دعاء خالصاً نرفعه الى وجهك الكريم مخلصين .

اللهم لقد قطعنا من العمر مراحل فيها كبونا ، وزلت النفس وعثرت القدم ، فأعنا على أن نستفيد لبقية طريقنا من كبوة كبوناها فيما مضى ، وعثرة عثرناها ، فيما انقضى . اللهم لقد كتبنا بأعمالنا صحفاً تشهد عندك علينا بما أحسنا وبما أسأنا ، فأعنا على أن تكتب فى صحيفتنا الجديدة ما يزيد فيها الحسنات على السيئات .

اللهم تقبل منا دعوة صالحة لبلدنا الذى نعيش فى ظله ، ونستمتع بخيره ، ولأحبابنا الذين ننعم بعطفهم ووداهم ، وأنا لنحمدك دائماً ونأمل فى برك وخيرك . آمين .

القاهرة فى ١٧ من يوليه سنة ١٩٢٦

لهجة ابن الخاقان

لما مات السلطان الخليفة محمد وحيد الدين السادس ناولنى صديقى الأستاذ داود بركات جريدة من جرائد الشام لأقرأ فيها ما يأتى : « تلقينا من سمو البرنس محمد سليم افندى الكلمة الآتية : يشكر البرنس محمد سليم باسم أعضاء البيت الملكى العثمانى رجال المفوضية العليا والحكومة المحلية والشعب البيروتى والوفود التى أتت الى بيروت من الجهات وجميع من تفضلوا فشاركوا آل عثمان فى تشييع جنازة السلطان الخليفة وحيد الدين السادس طالباً من الله ألاّ يريهم مكروهاً فى عزيز . باسم العائلة الملكية العثمانيـة البرنس محمد سليم بن السلطان عبد الحميد خان الثانى » .

لم يقدم الىّ الصديق تلك الجريدة لأطلع على كلمة شكر مفيدة فى جريدة سيارة ، لكنه أراد أن ألتفت الى كلمة قد لا تمر دون أن تترك فى النفس أثراً غير الآثار التى تتركها فى النفوس كلمات الشاكرين المحزونين ، كلمة شكر للناس ممن كانوا يقدرون أن من واجب الناس أن يشكروهم بعد الله ، وان من حقهم حيال

الناس أن يقبلوا الشكر أو يردوه . كلمة شكر ممن كانت تنخفض لهم أرفع الرؤوس ، وتتضاءل عند عزهم أعز النفوس . كلمة شكر ممن كانت الجباه والأنوف تتضع عند حشمهم ، وترغم عند خدمهم ، كلمة شكر يكتبها ابن الخاقان الأعظم فى جريدة سيارة ، وفى نهر من أنهارها التى تتسع لأكثر ما تخطه أقلام الكاتبين ، ولأكثر ما يروى من أخبار الناشرين ، ولأكثر كلمات الآجرين. فسبحان من يهز العروش ولا يهتز عرشه ، ويضع الأعلياء ، ويرفع الأذلاء ، وهو باق فى عظمته وملكوته ، لا يدانى عزته عز ، ولا تهز عرشه قوة .

ان الخواطر تدعو الخواطر ، وبعض الذكريات تدعو الذكريات ، وبعض العبر تدعو للعبر . ولقد تذكرت فيما تذكرت عند ما قرأت كلمة الشكر زيارة لقصر من قصور قياصرة النمسا عرضت فيه للزائر أمتعتهم الغالية وزخارف الدنيا التى كانوا بها ينعمون ، ونعيمها الذى كانوا فيه يتقلبون . وفى القصر رأيت غرف نومهم ونعيمهم ، وغرف أسمارهم وعظمتهم . وفى غرفة من الغرف قليلة الرياش رأيت سريراً بسيطاً ، ومحراباً ، ومنضدة ، وضعت عليها كتب مقدسة . ووقف بنا الدليل ، عند هذا السرير الضئيل ، وفى هذه الغرفة الساكنة التى تتجلى فيها آثار الزوال ، ومظاهر

الاضمحلال، قال هنا مات فرنسيس يوسف القيصر وبموته مات عهد القياصرة . وفى هذه الغرفة التى وقفنا بها وقفة محيت كل مخايل العزة التى كانت تتجلى فيما رأت العين من غرف تخيل لنا الذل بعد العز، والإقلال بعد الإقبال، والشقاء بعد الهناء ، والفناء بعد البقاء ، وحول السرير الذى ذهب صاحبه إلى حيث لا يعود وفى الغرفة التى خمدت فيها أنفاس كانت قوية ، وخفت فيها صوت كانت تخفت عنده الأصوات ، لم يبق إلا صدى يكاد يتردد حول المحراب: أن الملك ليس إلا لله ، والعظمة الحقة هى له دون سواه .

ثم هبطنا الى حيث رأينا مكان مراكب القياصرة وتصورنا الخيول المطهمات وجلالة الراكب ، ورهبة المواكب ، ولكن وقع نظرنا على المركبة التى حملت فيها الملوك الى مقابرهم على مقربة من تلك المركبات التى كانوا يذهبون فيها الى مواكبهم ، فتذكرنا كذلك أنه يخلف الشقاء الهناء ، وقد يخلف الفناء البقاء . فلو علم العاقلون من الملوك والأمراء والسادة والعظماء أن السماء فى الأفق قد تتصل بالغبراء ، ولو فطنوا أن الرفيع قد يسفل، وأن نجمه قد يأفل، لهونوا على أنفسهم نزعات الكبرياء وخاطبوا الناس بلسان الناس فان لهم يوما تستبدّ بهم فيه يد الحدثان وتصير لهجتهم كما صارت لهجة ابن الخاقان.

القاهرة فى ٢٤ من يوليه سنة ١٩٢٦

الرضـــا

. . . فى الأرض زهرة ناضرة تشع من حولها هالة من الحسن والبهاء ، قد تحسبها ابتسامة لماعة كالأمل . وقد تحسبها مراحاً تطمئن اليه العين ويستريح اليه النظر . وقد تحسبها نوراً ينبعث من الأرض ليضيء بأشعة البشر ناحية من نواحى الوجود ، وقد تحسبها عيناً تتجه الى السماء . ويلوح من حولها الرجاء .

وفى الأرض كذلك زهرة ذابلة قد تحسبها مثالاً للانقباض والكآبة . وقد تحسبها النجم الآفل، والحسن الزائل، وقد تحسبها كلمة الانقطاع أو تحية الوداع .

وربما كان السبب إلى نضرة الزهرة الباسمة ذلك الشباب الذى يتسلط على حياتها . وربما كان فى ماء الحياة السارى فى أنسجتها ، وربما كان فى محيطها المندى الذى يدفع عنها أعراض الذبول ، ويبعد عنها زمن الأفول ، ولكن أيا كان السبب فان الزهرة الناضرة تظل رمزاً للبشر والرضا .

وربما كان سبب انكماش الزهرة الذابلة مرضاً أصابها ، أو قيظاً لفحها ، أو هرماً بلغ منها ، ومهما تعددت الأسباب فانها تظل رمزاً للانقباض والعبوس .

*
* *

مثل الانسان الذى يفيض البشر فى وجهه ، وينطلق الرضا من محياه ، مثل الزهرة الناضرة تبعث الأنس الى النفوس ، والقرة إلى العيون ، والانشراح إلى الصدور ، ومثل الانسان المكفهر الوجه ، المقطب الجبين ، مثل الزهرة الذابلة إذ يدعو النظر اليها الى الأسى والسآمة .

أن الأول ليفهم لغة الاشراق ويحن إلى السرور . أما الثانى فلا يعرف إلا الظلمة ولا تنطلق نفسه إلا إلى الديجور . الأول يطرب للغناء ، ويتشوق لحنين الحداء . أما الثانى فلا يتسمع من الوجود إلا صيحة الشوم ، ونعقة البوم ، الأول يأنس لزقزقة الأطيار ، وحفيف الأشجار . أما الثانى فيعبس للأقدار ، وتسود فى نظره أضواء الأقمار .

قد يجد العبوس لحالته تلك من الانقباض أسباباً . فتارة يحسبها من ضنك العيش ، وتارة يتوهم لها أسباباً من السقام ، وأوهاما من الآلام ، وتارة يحسبها فى خيبة الرجاء ، أو فى شدة البلاء ، لكن لعل أدق الأسباب إلى سر حالته استعداده للجزع من الوجود ، وخلوه من درع الرضا ووقاية التسليم .

لو علم الانسان حق العلم أن فى قوة الإيمان بالأزل وقوانينه ما قد يخفف شدة شقائه ، ووطأة ضرائه ، لما تردد فى أن يأخذ طريق الفلاسفة الرواقيين فآمن بما تنزل به اليه سنن الكون بأرضه وسمائه وقبل الأمور بالرضا .

*
* *

روى أن النبي العربى سأل طائفة من أصحابه ما أنتم ؟ قالوا مؤمنون . فقال ما آية إيمانكم ؟ فقالوا نصبر على البلاء ، ونشكر عند الرخاء ، ونرضى بمواضع القضاء . فقال النبي : مؤمنون ورب الكعبة .

وروى الغزالى فيما روى أن عابداً عبد الله دهراً طويلاً فأرى فى المنام أن فلانة الراعية تكون رفيقة له فى الجنة ، فسأل عنها العابد إلى أن وجدها ، ثم استضافها لينظر الى عملها الذى تستحق عليه نصيبها من الجنة والخلود ، لكن العابد كان فى دهشة من أمرها عند ما كان يبيت قائماً وتبيت نائمة ، ويظل صائماً وتظل مفطرة ، فقال لها العابد أما لك عمل غير ما رأيت ؟ فقالت الراعية ليس لى والله إلا ما رأيت . فألح العابد عليها فى أن تتذكر ما لها من سجايا وخصال ، فقالت المرأة لى خصيلة واحدة : هى أنى إن

كنت فى شدة لم أتمن أن أكون فى رخاء ، وإن كنت فى مرض لم أتمن أن أكون فى صحة ، وإن كنت فى شمس لم أتمن أن أكون فى الظل ، فوضع العابد يده على رأسه عندئذ وقال هذه والله خصلة يعجز عنها أكبر العباد .

* * *

وصفوة القول أنه إذا كان من حق الإنسان أن يضجر بما هو واقع ، ويعبس ويثور مما يؤلمه من الحياة ويؤذيه ، وإذا كان من حقه كذلك أن يكون طموحاً إلى ما ينبغى أن يكون ، غير قنوع بما هو كائن ، فان من واجبه أيضاً أن يبتسم للعيش ويعرف البشر والرضا ، فى حوادث الدنيا وأمور القضاء .

القاهرة فى ٥ من اغسطس سنة ١٩٢٦

عام ٢٧

. . . وأنت يا عام تقبل على الدنيا ، ثم تنطوى عنها . وقد انطوت من قبلك أعوام ، وتقدمت من قبلك أيام ! ! فماذا تراك شاهداً من الوجود ؟

شيء يحول ، وشيء يزول .

زهر يتفتق ، وأمل يتحقق .

عين تفيض ، وأخرى تغيض .

طير يغرد ويحن ، وطير ينوح ويئن .

نبت يتطلع للنماء ، وشجر يرشّحه الذبول للفناء .

كل ذلك ، وأكثر من ذلك ياعام ، سوف تشهده ! ثم قد تقبض من جعبتك قبضة تلقيها فى الكون مصادفة ، وتنثرها نثراً من غير ترتيب ، فبعضهم يصب من نثرتك ابتسامات مشرقة ، وبعضهم يصيب منها دموعاً مترقرقة . ومنهم من يصيب اقبالاً ، ومنهم من يصيب إقلالاً . ومن يصيب السلام ، ومن يصيب الخصام . وقد تأتى يا عام بالعجائب ، وقد تظهر فيك يا عام الغرائب ، وقد تجرى فى مجراك المتناقضات ، والمتشابهات ! !

*
* *

فما أنت إذن أيها القادم الذى يدرج الى الوجود فى منتصف ليلة السبت من آخر العام المنصرم ؟

بل ما أنت أيها الجديد الذى تتسع للقائه أذرع المتفائلين بالترحيب ، وتوسد له صدور الشباب الوثاب للحب والأمل ؟

بل ما أنت أيها الكائن الذى يستقبله الناسكون فى مناسكهم بألوان الصلوات ، وأنواع العبادات ؟

بل ما أنت يا هذا الذى تحتشد له أقوام من الفرنجة فى بيعهم فيهللون له تهليلاً ، ويرتلون له بكرة وأصيلاً .

بل ما أنت يا هذا الذى تحتشد لطلعته .

هواة متاع العيش فى زمن الصبا　　　ومختلسو اللذات قبل فواتها

فيشرب شاربهم ، ويطرب من يطرب .

بل ما أنت أيها المتمثل فى جنح الليل بمسوحك السوداء لثكلى مسهدة تذكر عزيزا غاب محياه فى الثرى .

ما أنت ، ما أنت ؟

ما أنت إلا احدى دورات الفلك الدوار وكم للفلك من دورة وما أكثر ما يدور الفلك !

دورة يجعلها الناس مقياساً لبرهة من زمن بعيد المدى . دورة لا قيمة لها فى ذاتها وما أصغرها إذا قورنت بالدهر والدهر ممدود غير محدود . إنك لصغير صغير ! ! ضئيل ضئيل ! !

*
* *

على أنك يا عام قد يأخذك الغرور إذ تذكر لنفسك أنك بعض الزمن الذى يعمل فى تتابع الحادثات ، وتوالى النازلات .

ويشقق الأرض صدوعاً ، ويهبط الجبال خشوعاً . ويزلزل الأرض زلزالها ، ويخرج من الأرض أثقالها . ويدك العروش العالية ، ويجدد الآمال البالية .

قد يأخذك الغرور وتتولاك العظمة ! ! ولكن لا عظمة لك حقاً مهما تعاليت إلا بسرين يخلعهما عليك ابن آدم من أسرار نفسه : الاستكانة للعظمة المطلقة ، وقوة الرجاء فى المال .

فأما الأول فانك تخر خاشعاً عند ما يهتف لك من أعماق الأبدية صوت يصيح : ما المبدأ وما المصير ؟ ؟

فنقول لله الأمر جميعاً .

وأما الثانى فالرجاء الذى تفيضه الانسانية من ضميرها لتلقيه فى طياتك وتوجهك فى سبيل الخير ، فى سبيل الكمال .

القاهرة فى أول يناير سنة ١٩٢٧

الايثـار

فى مثل هذا اليوم ، من الأسبوع الفائت ، أشرت على صفحة هذه الجريدة الى أن المنقب فى أطلال القديم يجد بين الترب تبراً ، وفى مبعثر الحصا ذهباً . وكنت أحقق لنفسى ما أشرت اليه ، فأخرجت من خزانة كتبى بعض الأسفار ذات الورق الأصفر ، ذات الطبع الكريه ، ذات الهوامش والحواشى ، وكلها أو أكثرها مما وضع المتقدمون عليهم الرحمة ولهم الفضل . وكلما فسحت لى مشاغل الحاضر ، تناولت هذه الأسفار لأسمع منها بعض نغمات الغابر ، واليوم أحببت أن أشرك معى القراء فى بعض ما سمعت .

***

قرأت للغزالى ما يأتى : « قال حذيفة العدوى انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لى ومعى شىء من ماء وأنا أقول ان كان به رمق سقيته ومسحت به وجهه ، فإذا أنا به ، فقلت أسقيك ؟ فأشار إلىّ أن نعم ، فإذا رجل يقول آه ، فأشار ابن عمى أن انطلق بالماء اليه . قال فجئته فإذا هو هشام بن العاص ، فقلت أسقيك ؟

فسمع به آخر، فقال آه . فأشار هشام أن انطلق به اليه . فجئته فاذا هو قد مات فرجعت الى هشام فاذا هو قد مات ، فرجعت الى ابن عمى فاذا هو قد مات . رحمة الله عليهم أجمعين »

ثم قرأت ما يلى : « قيل خرج عبد الله بن جعفر الى ضيعة له فنزل على نخيل قوم فيه غلام أسود يعمل به فاذا أتى الغلام بقوته دخل الحائط كلب ودنا من الغلام فرمى اليه الغلام بقرص فأكله ، ثم رمى اليه الثانى والثالث فأكلهما ، وعبد الله ينظر اليه . فقال يا غلام كم قوتك كل يوم ؟ قال ما رأيت . قال فلم آثرت به هذا الكلب ؟ قال ما هى بأرض كلاب ، أنه جاء من مسافة بعيدة جائعاً فكرهت أن أشبع وهو جائع »

*
* *

وان الفكر لتسوق الفكر ، كما أن الذكريات تبعث الذكريات ، فرحم الله ذلك الزمن الذى يروى لنا أن من أهله من كان يؤثر حياة غيره على حياة نفسه ، فبمثل هؤلاء سادت الشعوب . ورحم الله ذلك الزمن الذى كان يعتقد الناس فيه بالفضائل ، ويؤمنون بأن الله يبوىء جنته من ينكرون الأثرة ، ويعملون للأيثار . بل رحم الله ذلك الزمن الذى فيه كان يرى

بعض أهله أن الجدير بأمر من الأمور أولى به أن ينزل عليه هذا الأمر ، وأن الأحق بشيء أولى به أن يصيب ذلك الشيء ، لأنه حقه . رحم الله ذلك الزمن الذى قدر فيه الإيثار قدره .

والآن نجد الأثرة تسمع صوتها فيخفت صوت الايثار . يزاحم عديم الكفاءة الكفء ليقصيه بمختلف الحيل الدنيئة عن منصبه ، وينزل بالفارس المغوار بأحط الأساليب عن مركبه . لا يقنع الغنى الميسور بيسره ، فيتلمس بناء ثروة من مال الفقير ويزيده عسراً على عسره . وأين ذلك الزمن الفائت وأين فضائله أين ؟

***

بمثل أساليب الغابر الفاضلة ، تعتز الدول وتسمو الأمم ، وبمثل الأثرة والأنانية الحاضرة تذل الحكومات وتضمحل الشعوب ، ولو فشا فى الناس خلق الإيثار لما تنازعوا فى وزارة ، ولا تنافسوا فى امارة !!

القاهرة فى ٦ من فبراير سنة ١٩٢٧

الدس والحسد

تفشى الناس خلق ممقوت ، صورته مزعجة ومنظره دميم . يتزيا هذا الخلق أحياناً بزى زاهى اللون ، فيخفى جمال لونه اكثر دمامته ، وينتحل لنفسه أحياناً اسماً غير اسمه المنكر ، فيلقاه الناس بالصدر الرحيب ، كأنه العزيز الحبيب . لكنهم وا أسفاً مخدوعون عن أمره ، غافلون عن مخبره ، مغترون بمظهره .

ذلك الخلق هو خلق الدس والمكر السيء .

*
* *

تشاكل أحياناً صورة هذا الخلق صورة القدرة والمهارة ، فيخيل للناس أن صاحبه ماهر ، لأنه أوقع غيره فى مكيدة يعسر على هذا الغير أن يخلص من شرها المستطير ، أو يبدو للناس أن صاحبه قادر لأنه يبهم الواضح وعقد المحلول ، وتارة يقال لصاحبه داهية لأنه يستخدم شتى الأساليب وأنواع الحيل ليظفر بغرضه الباطل ، وتارة يسند لصاحبه الذكاء لأنه يتخذ مختلفة الوسائل ويعمل بشتى الأسباب الوصول الى ما يريده من السوء ، وتارة يوصف صاحبه بالسياسة لأنه يسوس الأمور بلباقة وكياسة ليصل الى ما تقنع به شهوته وترضى به أنانيته .

لو أنصف الناس حقًا لضنوا بهذه العبارات على غير معانيها التى رسمت لها، وحبست عليها، ولا حرفوا تلك الصفات وجعلوها لغير حقيقة موصوفها . وقصارى القول أنه لو أنصف الناس لسموا الأشياء بأسمائها واستعملوا كلمة الدس لهؤلاء الذين يتسترون بثياب مستعارة ، من الدهاء والحذق والمهارة ، ليسيئوا الى هؤلاء الذين لا يؤذون أحداً ، وليمنعوا الخير عمن يستحقونه ، وليدفعوا الشر الى الذين طابت نفوسهم، الذين لا يحذرون كيد الغادرين ، والذين يستأمنون الناس لأنهم غير ماكرين . ومما يذكر لهذه المناسبة ما قرأته فى كتاب من كتب الأدب .

***

« قيل إن رجلاً من العرب دخل على المعتصم فقربه وأدناه وجعله نديمه وصار يدخل على حريمه من غير استئذان . وكان له وزير كثير الحسد فغار من البدوى وحسده ، وقال فى نفسه لا بد من مكيدة لهذا البدوى فإنه قد أخذ بقلب أمير المؤمنين وأبعدنى منه فصار يتلطف بالبدوى حتى أتى به إلى منزله ، وصنع له طعاماً وأكثر فيه من الثوم ، فلما أكل البدوى قال له احذر أن تقرب من الأمير فيشم منك رائحة الثوم ، ثم ذهب الوزير

إلى أمير المؤمنين نخلا به وقال ان البدوى يقول عنك للناس ان أمير المؤمنين أبخر. فلما أتى البدوى طلبه المعتصم، فلما قرب منه جعل كمه على فمه مخافة أن يشم الأمير منه رائحة الثوم، فلما رآه أمير المؤمنين وهو يستر فمه بكمه قال إن الذى قاله الوزير عن البدوى صحيح، فكتب المعتصم كتاباً الى بعض عماله يقول فيه إذا وصل اليك كتابى هذا فاضرب عنق حامله. ثم دعا البدوى ودفع إليه الكتاب وقال له امض به الى فلان وجىء سريعاً بالجواب، فامتثل البدوى ما رسم به المعتصم وأخذ الكتاب وخرج به من عنده، فبينما هو بالباب إذ لقيه الوزير فقال له أين تريد؟ قال أتوجه بكتاب أمير المؤمنين إلى عامله فلان، فقال الوزير فى نفسه ان هذا البدوى ينال من التقليد مالاً جزيلاً. فقال له ما تقول فيمن يريحك من هذا التعب الذى يلحقك فى سفرك ويعطيك ألفى دينار؟ فقال له أنت الكبير وأنت الحاكم، ومهما رأيته من الرأى أفعل. فقال هات الكتاب، فدفعه إليه وأعطاه الوزير ألفى دينار، فركب الوزير وسار بالكتاب إلى المكان الذى هو قاصده. فلما قرأ العامل الكتاب أمر بضرب عنق حامله.

وبعد أيام تذكر الخليفة أمر البدوى وسأل عن الوزير ، فأخبر بأنه له أياماً ما ظهر ، وأن البدوى بالمدينة مقيم ، فتعجب المعتصم من ذلك ، وأمر باحضار البدوى وسأله عن حاله فأخبره بالقصة التى اتفقت له مع الوزير . . .

فقال المعتصم قاتل الله الحسد بدأ بصاحبه فقتله . ثم خلع على البدوى واتخذه مكانه وزيراً » .

*
* *

والخلاصة أن الدس والحسد طالما أوقعا فى الندامة ، وأبعدا عن مواطن السلامة . فهل لأربابهما من عظة إذا هم قرأوا ما تقدم ثم قرأوا « ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله » وهو حكم جاء به الكتاب الأكرم ، وجرى به فى شؤون الخلق القانون الأعظم ؟

القاهرة فى ١٧ من فبراير سنة ١٩٢٧

نصف شعبان

فى هذا الشهر، فى ليلة الخميس الفائتة مثلت لفئة من الناس ليلة لها ميزة عندهم على ما تقدمتها من ليال وعلى ما يعقبها من ليال : تلك ليلة النصف من شهر شعبان .

لكن شعبان قد حل على كثير من الناس دون أن يتنبهوا لمقدمه ، ودون ان يحفلوا بمجيئه وقد أرخت لياليه سدولها على جهات من المدينة دون أن يظهر فى هذه الليالى أثر من آثاره . وقد بلل طل شعبان حدائق بعض القصور دون أن يشعر أهلها بأن هذا الطل والندى يغاير كل طل وندى . وقد غمرت أضواء بدره كثيراً من المساكن دون أن يكون فى ضياء البدر ما ينبىء بشىء خاص عن شهر شعبان . وذلك لأن الحياة الاجتماعية وأحوالها أنست الناس شهوراً بشهور ، وبدلت التواريخ بتواريخ ، وأظهرت أياماً ومسخت أياماً . وهذا من شؤون الحياة والحياة تظهر وتخفى ، وتمسح وتثبت ، وللحياة الاجتماعية سلطان قادر، وحكم قاهر .

وبينما كنت أسير فى ناحية من المدينة طبع عليها مظهر الحياة الغربية إذ أقبل علىّ رجل معمم رث البزة سقيم المنظر ، وفى يد الرجل صحف فيها دعاء نصف شعبان ، وألح علىّ أن أبتاع من بضاعته . ولست أدرى ما الذى حمله على أن يتوجه ببضاعته ناحيتى ، دون جماعة من المطربشين كانوا على مقربة منى ومنه ، لولا أن رآنى أسير بجانب شيخ صديق ينبعث من وجهه نور الايمان ، وتبدو تقوى الله على محياه .

*
* *

شريت من الرجل صحيفة من صحفه وطويتها بجيبى ، ثم مضيت فى سبيلى ومضى الرجل فى سبيله فى هذا الحى الأوروبى ، على أنى تذكرت عندئذ أننا الآن فى شهر شعبان وخيل الىّ أن بائع هذه الدعوات رسول غريب من قرية بعيدة نائية الى هذه الجهة التى كان يسعى فيها بصحفه ويعرض على الناس بها بضاعته . بل خيل الىّ أنه رسول الغابر الى الحاضر ليذكر أن بين الغابر والحاضر رابطة لا تنقطع وحبلاً موصولاً . بل خيل الىّ أن الرجل وما يحمل كأنه صورة من تلك الصور

التى تبعث الى النفس التأمل فتحرك فيها المستقر من الخواطر .

الناس لاهون بأعمالهم فى الحى الفرنجى من المدينة عن شعبان . والقهوات غاصة فى ليلته بمن هم فى شغل عن دعواته . وأهل السمر يسمرون فى نواديهم . وأهل الخلاعة يقطعون الليل أو شطراً من الليل فى ملاهيهم . ومع ذلك فالرجل الذى جاء من حى وطنى فى بعض منازله يقرأ القرآن إحتفاء بليلة شعبان ويصلى المصلون، ويبتهل المبتهلون. كأنه يقول لهذا الحى الأوروبى من المدينة ولمن من أهله لا يدرون ما شعبان وما ليلته : أن الناس جميعاً يتشابهون عند الشدائد، وتدق قلوبهم على وتيرة واحدة فى المحن، مهما اختلفت سحنهم، وتغيرت شهورهم، وتعددت طقوسهم، وانه عند دقات قلوبهم المتشابهة فى الخوف والرجاء يهتفون لله بمعنى واحد لا يخرج عما فى صحيفة دعاء نصف شعبان : اللهم أنك ظهر اللاجئين، وأمان الخائفين، وجار المستجيرين .

القاهرة فى ٢٠ من فبراير سنة ١٩٢٧

العفر الطاهر

متجملة أكثر مما هى جميلة ، متظرفة أكثر مما هى ظريفة . دون الطويلة على أنها ليست بالقصيرة . كانت ترتدى جلباباً من الحرير السماوى الشفاف وقد شمرت عن بعض ساقيها الدقيقتين ، إذ جوربتهما بجورب يروح لونه بين صفرة بعض المرمر وحمرة بعض الورود . . . ارتفع كم جلبابها ليكشف عن معصمها المبيض وكانت مشيتها بطيئة فى شىء من التثاقل والعجب والعظمة ، وليس يحول صدرها المرتفع دون تموج الجسم وتثنى الخصر ، وحيث كانت تسير تضوع منها شذى المسك والياسمين . أما عيناها فكانتا مكتحلتين بالسواد المصنوع الذى تعدى بعضه باطن الجفنين ، ومآقى العينين . وتعلو بشرة وجهها طبقة من المسحوق الأبيض الذى يمازجه آخر أحمر وعلى رأسها قبعة عليها طاقة من الزهر المصنوع .

أما صاحبها فكان رداؤه أسود أنيقاً وقبعته من النوع الرخى السخى . حليق اللحية ، أزالت الموسى طرفى شاربيه ، وشذب المقص ما بقى منهما ، ولم يذر إلا ما هو دون فتحات الأنف .

منديله الأبيض يطل مشرئبا على صدره بطرفين يشرفان الى العلو، وفى فتحة من فتحات معطفه زهرات باسمة ، وفى يسراه عصا كأنها تعتمد على عنايته فى صيانتها أكثر مما يعتمد عليها فى صيانته.

*
* *

السيد والسيدة كانا ينتظران القطار على أفريز إحدى محطات الضواحى ويسيران ثم متبخترين مقبلين مدبرين .

وقبل وصول القطار بدقائق قليلة أقبل من خلف الأفريز فاعل من الفعلة كأنه نبت من الأرض طفرة واحدة . وكان حافى القدمين ، مفتول العضل يرخى لحية سوداء قصيرة مغبرة ، عليه سروال يظهر ساقه داكنة ، وفوق قامته قميص استحال بياضه الى لون التراب ، وعلى رأسه شبه عمامة ، وقد أرسل على كتفه جلباباً أسود يظهر فيــه مزيج من الجير والرمل والحمرة . هو من هؤلاء العمال الذين يعملون فى تشييد المنازل أو حفر الجنادل . وكأنه حين رأيته كان قد فرغ من عمله لساعته لأن آثار الجهد تبدو عليه . ويظهر أن الرجل المكدود كان مستغرقاً فى فكره أو أوصابه فلا يلفته ما أمامه ولا ما حوله .

خطا الفاعل خطوتين أو ثلاثاً أمام السيد الأنيق . ١١

المتأنقة ، ثم قبل أن يرتدى رداءه المسدل على كتفه أخذ ينفضه مما علق به من العفر . وما كاد يلوح به مرة أو اثنتين فى الهواء حتى لحقه السيد الأنيق صائحاً . متوعداً . مهدداً ، رافعاً عصاه اللينة ليهوى بها على المنكبين الصلبين الشديدين ، ولكن الفاعل وقد أخذه نوع من الذعر لم يفه إلا بعبارة واحدة :

هذا تراب طاهر. أنه لتراب طاهر ! !

*
* *

حقاً لم يكن صاحبنا الفاعل ليعلم أن وراءه المتأنقة المعفرة بالمسحوق الأبيض ليتقى الشر ممن أزعجه اليسير من عفر العمل . وحقاً لم يكن صاحبنا السيد ليتذكر وقتئذ أن أمثال القصر الأنيق الذى يسكن الى صاحبته فيه قد ترك تشييده فى ثوب العامل ما من أجله أهين وانتهر .

ألا فارخ بربك ساعديك أيها الملوح بعصاه ، المشمئز من تراب العامل ، وأطرق إجلالاً فان الغبرة التى تجلل ثوب هذا المنتج الكادح وتغمر وجهه أطهر وأكرم عند الله من تلك المساحيق التى ذرتها صاحبتك على وجهها لتجعل منها عليه وجهاً آخر .

الأحد فى ٢٠ من مارس سنة ١٩٢٧

التصنع والتواضع

صاحبي مفرط الشغف فى أن يعد من أهل الحسب . وله ولع بأن يسند الى أهل النسب دون أن يكون من النبلاء فى أرومته ، ودون أن يتفضل الله عليه ببعض تلك الملامح التى قد يتميز بها أهل الانساب ، ليس بذى القوام السمهرى الرشيق وليس بذى الأنف الأقنى أو الأشم ، وليس بذى الراحتين الرخصتين الصغيرتين ، وليس فى طبيعة صوته غنة . وليس فيها صحل . ليس بذى الملامح التى تنم عن وراثة فى النعمة وسالف الطمأنينة ، لكن صاحبي مع ذلك يتأنق فى لبسته ويتعالى فى مشيته كأنه يتطلع الى أن ينطبق عليه قول ابن الاعرابى :

شبهت «مشيته» بمشية ظافر يختال بين أسنة وسيوف

هو يشمخ بأنفه وأنفه أدنى الى أن يكون غليظاً أفطس ، وهو يجمل يده بتقليم الاظافر وطلائها مع أن أظافره تنبت فى أصابع دق أسفلها وغلظ عاليها تتفرع من يده الرحوية الشكل . وصاحبي اذا أراد أن يتكلم يبحث عن غنة الصوت فينزل صوته الى الخنف ، ويبحث عن الصحل فينقلب صوته الى النعير . أما

اذا ذهب الى قهوة فهو لا يذهب إلا الى حيث يرابط ابناء الذوات ويتعفف عن أن يجلس فى القهوات التى يؤمها أهل الحرف وأهل التجارة وسادتنا من أرباب المعاش وصغار الموظفين. واذا ذهب الى عزاء فانه لا يهدأ باله إلا اذا استطاع أن يتخطى الصفوف ويضع نفسه حيث يتقدم مع المتقدمين. كل ذلك وصاحبي ينسى ان الناس لا يجهلون منزلته فلا يغنيه أن يتقدم فى الصفوف ولا يغنيه أن يحط فى أكبر القهوات، وليس يضيع معالم حقيقته تشامخ الأنف والتهادى فى المشية وتصنيع الصوت والتجبر فى معاملته مع صغار المرتزقة وتنكر ذويه ممن لا ترتفع بهم سمعته، ولا تروج بذكرهم بضاعتهِ.

*
* *

لأمثال صاحبي الذين يعولون على التصنع والتجمل والتظرف فى تغيير رأى الناس فيهم أريد أن أذكرهم بقول وأن أروى لهم قصة: فأما القول فلابن الخطاب رضى الله عنهُ حين نظر الى صفوان مبتذلاً لأصحابهِ فقال: هذا رجل يفر من الشرف والشرف يتبعه. وعلى هذا فالشرف كما أنه يتبع الرفيع، فهو يفر عن الوضيع مهما تشارف وترافع

وأما القصة فيروى أن عمر بن عبد العزيز أتاه ليلة ضيف وكان يكتب فكاد السراج يطفأ . فقال الضيف أأقوم الى المصباح فأصلحه . فقال عمر ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفه. قال الضيف : أفأنبه الغلام ؟ فقال عمر هى أول نومة نامها ، ثم قام عمر وأخذ البطة وملأ المصباح زيتا . فقال الضيف أقمت أنت بنفسك يا أمير المؤمنين. فقال عمر : ذهبت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر ما نقص منى شىء وخير الناس من كان عند الله متواضعاً .

القاهرة فى ٢٧ من مارس سنة ١٩٢٧

أيام العيد

أيام الأعياد هى دورات للفلك كغيرها من دورات الفلك . لا يتغير فيها نظام السماء فى شىء ، ولا تتغير حركة الأرض قيد شعرة عن مجراها . الكواكب تسير فى الأفق الأعلى وفق قانونها كما شاء الله أن تسير ، والأرض كما كان الأمر منذ الأبد ما برحت تستقبل الجديدين فتعبس تارة لوجه الليل ، وتبسم أخرى لوجه النهار . وما زالت الشمس كما يتصورها الناس تبرز من خلف ستارة الأفق من فجر كل يوم ثم تسبح لتتوسط السماء ، ثم تنحدر رويداً رويداً حتى تغوص وتغيب ، ثم تعود فتطفو مرة أخرى لترى الناس وجهها كأنه أصفر رهبة من عمق الفضاء وملكوت الله لا يذرع ولا يحد .

*
* *

لكن إذا كان عالم الأفلاك لم يتخلف عن نواميسه فى أيام العيد فهناك عالم آخر ظهر فيه التغير واضحاً جلياً . ذلك هو عالم النفوس .

توافق الناس فى أيام العيد أن تهتز نفوسهم هزات شديدة اصطلحوا على تسميتها بالسرور أو الفرح . ومن شأن تلك الهزات

أن تحدث فى أمور الناس غير ما ألف الناس فى كل يوم . تحدث فى المدن والقرى حركة أشد ، وتحدث فى لباس الكثيرين أناقة وكياسة ، وتحدث فى وجوههم زهاء وبشرا ، وتجرى على ألسنتهم دعوات وشكراً .

*
* *

فى مسافة من الطريق لا تزيد عن الميلين شهدت أكثر مظاهر العيد . رأيت بعض الأصدقاء يقبلون على بيت صديق لهم . وجميعهم يحملون على ألسنتهم دعوة لأعزب الدار ان يهيئ له الله ما تصبو اليه نفسه من عروس صالحة ، ولتلميذ الدار أن يعينه الله على أداة الامتحان ونيل الشهادة ، ولشيخ الدار أن يتقبل الله منه تقواه ويمتعه بزيارة حبيبه الرسول ، ولعريس الدار أن يرزقه الله بخير الخلف .

الناس جميعاً يعلمون أمر الدعوات فى كل يوم من أيام العام لكنهم قد توافقوا أن يرسلوها فى العيد حارة صادقة كأن الله قد خصص ذلك اليوم لدعوات عباده ليتقبل منها ما يتقبل ، وكأن الناس ينتظرون فى هـذا اليوم أكثر منه فى كل يوم رحمة الله عليهم ورأفته بهم .

ثم رأيت بعد ذلك عربة فيها صبية يصيحون ويصخبون، ويضجون، وكل دلائل السرور بادية عليهم. أوردتهم بالدماء مترعة، وأنفاسهم مسرعة، وحركاتهم كثيرة ومنوعة وضحكاتهم غزيرة، ووجوههم مشرقة مستديرة، وكل ذلك من آثار الفرح والناس تعلم حقا فى كل يوم من أيام العام، ما السرور والفرح، لكنهم توافقوا فى أيام العيد على أن يستعينوا بمظاهر الفرح على خلق الفرح.

ثم رأيت بعد ذلك عائلة تتكون من أب يسير آخذاً بيد طفله يجرى وراءه، ووراءهما أم يتقدمها ابنتان لابستان جلبابيهما الحمراوين الجديدين، وفى أيديهما بعض ما يبيع المرتزقة من حلوى ولعب. وما كان أشد هذا المنظر وقعاً فى نفسى إذ بدت لى عين الأم الرؤوم لا ترى فى هذه الطرقات الهائجة المائجة إلا غبطة أبنائها فى ثيابهم الجديدة فرحين مستبشرين. آه لو علم الذين يخلعون كل يوم ثيابهم الغالية ليستبدلوها بغيرها من الثياب الجديدة الغالية قيمة الثوب الجديد عند من يجددونهُ لأبنائهم مرة فى كل عام!!

ثم رأيت كذلك عربة يركبها شباب من المستهترين يرقصون،

ويطربون، ويشربون، ويتمايلون ويترنحون، وفى القول يتبذلون، والناس حقاً يعلمون فى كل يوم من أيام العام رذيلة الاستهتار لكنهم توافقوا اكراماً للعيد أن يتسامحوا فى بعض مظاهر الاستهتار.

*
* *

أيام العيد إذن تتجلى فى عالم النفس فى نزعات مشتركة وتوافق بين الناس على أن يتهلوا ويفرحوا ويوسعوا على أنفسهم ويتسامحوا.

والناس يهيئون أعيادهم لأنفسهم بأنفسهم دون أن تتغير الأرض والسماء بما يعملون، ففى الكون تظل مواطن اللذة، وفيه تظل مواطن الألم. وانك حيث ترى فى يوم العيد الموسر يتبختر فى جديد كسائه مطمئناً فى فرحهِ وغبطته، قد ترى المعسر الكادح فى ثيابهِ البالية لا يفكر إلا فى عسره وشقوتهِ!!

وإنك فى النهج الذى يجتمع فيهِ المجتمعون ويعيد فيهِ المعيدون قد تجد مكاناً يفترق فيهِ المفترقون، ويشيع فيهِ المشيعون!!

إن أشد الناس استفادة من الحياة من استطاع أن يجعل جلبة آمالها وأفراحها، تسترضجيج آلامها وأتراحها.

القاهرة فى ١٠ من ابريل سنة ١٩٢٧

الاغراق فى المجاملة

من الناس من تفيض الطبيعة على نفوسهم ، وتلامس فعالهم مظاهر الظرف والحياء فيكرمون من ليس بكرمهم جدير ، ويتلطفون مع من ليس بلطفهم أهلاً ، فاذا كان من قواعد الظرف والكرم أن يتلطف المرء بمن لم يجعل نفسه موضعاً للكرامة والاحسان ، فمن العدل ان نكافئ أهل الخير بوفرة الاقبال عليهم وأهل الشر بمظاهر الانصراف عنهم .

قال المتوكل لابى العيناء الى كم تمدح الناس وتذمهم فقال : ما أحسنوا وأساؤا .

ولقد يكون فى الاقبال على من لا يستحق الاقبال والمجاملة تفريط فى حق الجماعة وفى حق من يجامل . أما فى حق الجماعة فان وضع الدنئ الوضيع ، فى حسن المعاملة ، مكان الرفيع فمن شأنه أن يعمل فى تقديم الأشرار وتأخير الأخيار . ومن حق الأمم أن يتقدم أخيارها ، ويتوارى أشرارها .

وأما فى حق الشخص الذى يجامل فذلك لأن صاحب العيب اذا لم يشعر بعيبه ربما زادت نفسه مع الزمن سوءا . وإذا

لم يذكر الكريم بمحامده ربما ضعفت فى نفسه محامده .

قال خالد بن سالم دخلت على أسامة بن زيد فأثنى علىّ ثناء حسناً ، ثم قال لى انما حملنى على أن امتدحك فى وجهك انى سمعت النبي يقول إذا مدح الانسان فى وجهه ربا الايمان فى قلبه ولقد قيل فى الحديث : اذكروا الفاسق بما فيه . ولم يكن ذلك من الاغتياب .

*
* *

ولربما كان من أجمل ما اعتمد عليه الدين المحمدى فى إصلاح الجماعة انه جاء بقاعدة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حتى كان فى الاسلام بذلك نظام الحسبة واشترط بعضهم فى المحتسب الذى يحق له أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أن يكون مأذوناً فى ذلك من الحاكم ورأى بعض العلماء فساد هذا الشرط فاثبتوا لاحاد الرعية من عقلائها حق الحسبة من تعنيف الغير فى سبيل المصلحة ، ومن كسر الملاهى ومن اراقة الخمور وما إلى ذلك مما كان السلف الصالح يستبيحون عمله للخير والمصلحة .

*
* *

روى عن حيان بن عبد الله قال : تنزه هرون الرشيد بالدوين

ومعه سليمان بن أبى جعفر فقال له هرون : قد كانت لك جارية تغنى فتحسن فجئنا بها . قال فجاءت الجارية فغنت ، ولكن الخليفة لم يحمد غناءها . فقال الخليفة ما شأنك يا جارية ؟ فقالت الجارية ، ليس هذا عودى فقال هرون للخادم جئنا بعودها . قال فجاء الخادم بالعود ولكنه وجد فى طريقه شيخاً يلقط النوى فصاح الخادم به ليفسح له الطريق ، فرفع الشيخ رأسه فرأى العود فأخذه من الخادم فضرب به الأرض فكسره . حينئذ أخذ خادم الخليفة الشيخ الى صاحب الشرطة وطلب اليه أن يحتفظ بهِ لأنه طلبة أمير المؤمنين . ثم ذهب الى مولاه الخليفة وقص عليه الخبر فاستشاط الخليفة وغضب واحمرت عيناه فقال له سليمان ابن أبى جعفر خفف عنك الغضب يا أمير المؤمنين وابعث الى صاحب الشرطة بضرب عنق الشيخ فقال الامير لا ، ولكن نبعث اليه ونناظره فلما أحضر الشيخ أمام الخليفة قال له : يا شيخ ، ما الذى حملك على ما صنعت ؟ فقال الشيخ : انى سمعت أباءك وأجدادك يقرأون هذه الآية على المنبر : ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى وأنا رأيت منكراً فغيرته . . . . . فلم يكن من

الخليفة الكريم بعد ذلك إلا أن أمر له بجائزة.

*
* *

اذا لم نستطع وفقاً لآداب عصرنا وعرفنا أن نكون فى شجاعة الشيخ المحتسب لنجهر للعائب بعيبه فلا أقل من ألا نسوى فى مظاهر المجاملة بين الأخيار و بين الأشرار.

القاهرة فى ١٧ من ابريل سنة ١٩٢٧

القانون الخلقى وجلاله

كثيرا ما يقطع الغافلون من الناس أطوال الأرض وأعراضها ويسلكون مسالكها ، ويذرعون سبلها ، وتمر أمام أعينهم مختلف المشاهد وأجناس الناس — وكم فى نفوس الناس من فصول نقرأ منها رواية الحياة العظيمة — لكن دون أن يتنبهوا لأمر دقيق من دقائق هذه الحياة ، ودون أن يصيبوا موعظة مما يشاهدون.

وكثيراً ما تجلى للناظر المتبصر صور من الحياة ظاهرة جلية فى مجلس ضيق محدود يغشونه ، أو من حيث تسترق أسماعهم قولاً لطيفاً أو حديثاً طريفاً ، وقد ينزع اليقظون مما يحيط بهم زبدة من زبد الحياة أو عبرة من عبرها تخلص لهم كما يخلص المعنى الجامع من القول الطويل عند السامع اليقظ .

واليك صورة تجلت لى وظهر لى معها جلال القانون الخلقى :

فى عربة من عربات الترام الذى أكاد أركبهُ كل يوم لأذهب الى عملى ، اجتمعت فئة من الراكبين : فيهم أم مصرية وبجانبها طفلها الصغير ، وفيهم بعض رجال من أعمار مختلفة ، وفيهم سيدة خليعة ، وفيهم عامل الترامواى .

أما الأم فكانت مثلاً فى الاحتشام توجه الى صبيها نظرات

الحنون ، وكانت تارة تصلح له من ملبسه وتارة أخرى تحدثه فى وداعة وزحمة . بالاختصار كانت كأنها ترعى فيه أملها المرتجى ، وسعادتها النابتة ، ونعمتها السابغة ، فلا تكاد نفسها وحركاتها تتوجه إلا اليه والى ما يهمه .

وأما الرجال الجالسون فكان بعضهم مكباً على المطالعة فى الصحف ، وبعضهم يتحدثون فيما بينهم فى شؤون لهم ، والبعض يرعى شيئاً فى نفسه من فكرة عارضة تشغل الرأس أو أمر ذى بال.

أما الخليعة المكحلة فكانت تتلوى فى حركات مصنوعة لتلفت النظر الى نفسها وكانت تارة تشمر الأزار عن بعض ساقيها ، وتارة أخرى تكشف الثوب عن بعض ذراعيها ، ومرة تبدى زينتها ، ومرة أخرى تحاول أن تحدث مع العامل ، أو مع من حولها من غير حاجة ماسة لمثل هذا الحديث .

أما عامل الترام فكان فى ثوب عمله الأصفر مأخوذاً فى واجبه ذاهلاً بذلك عما عداه .

*
* *

سار بنا الترام شوطاً ثم أخذت الخليعة تستوقفه بصوت وعبارات وإشارات كان من شأنها أن تلفت نظر الجالسين ولكن

بامتهان واحتقار. فلما شرعت فى النزول التفت البعض الى البعض ثم التفتو اليها التفاتًا يدل على امتعاضهم من تلك الصورة المخجلة . ثم قطع الترامواى بعد ذلك شوطين وقامت السيدة المحترمة أم الصبي لتتأهب للنزول فأخذ الجالسون فى عونها وعون ولدها فى صورة من التقدير والاجلال لاحتشامها .

*
* *

فى الصورة التى مثلتها السيدة الخليعة، والصورة التى مثلتها السيدة الجليلة، وفى موقف الناس حيال الصورتين ظهر لى القانون الخلق فى هيئته الصامتة حين يعاقب من يستحقون العقاب بما تحفظة صدور الناس للناس من احتقار حقيق بأهل الاحتقار وحين يثيب من يستحقون المثوبة بما تكنه صدور الناس للناس من احترام حقيق بمن يستحقون الاحترام من أهل الكرامة . وانعقاب القانون الخلق عند من يشعرون بعقابه لمؤلم حديد، وان ثوابه عند من يعرفون ثوابه لقوى شديد .

الأحد فى ٢٦ من يونيه سنة ١٩٢٧

أنت أنت الله

إذا ما اتجه الفكر فى السموات حيث انتشرت النجوم فى الليل ، واذا ما كل البصر فيما لا نهاية له من الآفاق المظلمة ، واذا ما خشعت النفس خشعتها من رهبة السكون الشامل ، فانك تشرف بوجهك الكريم من خلال هذه الآفاق ، وتسمع صوتك فى ذلك السكون ، وتمس بعظمتك النفس الخاشعة المطمئنة . حينئذ تبدو الآفاق المظلمة كأنها باسمة مشرقة ويتحول السكون الى نبرات مطربة تنبعث من كل صوت ، وحينئذ تتغنى النفس الخاشعة لتقول أنت أنت الله .

***

واذا ما كان المتأمل على شاطئ البحر الخضم وأرسل الطرف بعيداً بعيداً حيث تختلط زرقة السماء بزرقة الماء ، وحيث تنحدر شمس الأصيل رويداً رويداً كأنها الابريز المسحور لتغيب فى هذا المتسع الملح الاجاج ، وحيث تتهادى الفلك ذات الشراع الأبيض فى حدود الأفق الملون بالوان الشفق كأنها طائر يسبح فى النعيم : إذ ذاك يشعر المتأمل بعظمة واسعة دونها عظمة البحر الواسع ، وإذ ذاك تقر العين باطمئنان الفلك الجارى على أديم الماء الممهد ،

وفى رعاية الله الصمد حيث تكون مظهر العظمة وحيث تطمئن النفس لرؤية ما تطمئن اليه فى منظر جميل ، إذ ذاك يدق الفؤاد بدقات صداها فى النفس : أنت أنت الله .

*
* *

واذا ما انطلقت السفينة بعيداً بعيداً فى البحر اللجى وهبت الزوابع ، وتسابقت الرياح ، وتلبد بالسحب الفضاء ، واكفهر وجه السماء ، وأبرق البرق ، وأرعد الرعد ، وكانت ظلمات بعضها فوق بعض ، ولعبت بالسفينة الأمواج وأجهد البحار جهده ، وأفرغ الربان حيلته ، وأشرفت السفينة على الغرق ، وتربص الموت من كل صوب وحدق ، إذ ذاك يشق ضياؤك هذه الظلمات والمسالك ، وتحوط رأفتك حول هذه الاخطار والمهالك ، وتصل بحبال نجدتك المكروبين البائسين ، واذ ذاك يردد القلب واللسان : أنت أنت الله .

*
* *

واذا ما اشتد السقم بمن أحاطته عناية الأطباء ، وسهر الأوفياء ، ونام بين آمال المخلصين ودعوات المحبين ، ثم ضعفت حيلة الطبيب ولم ينفع وفاء الحبيب ، واستحال الرجاء الى بلاء ، إذ ذاك تظهر

جالساً على عرش عظمتك والنواصى خاشعة والنفوس جازعة والأيدى راجفة والقلوب واجفة لتقول : أنا قضيت ، ويقول الطبيب والقريب والحبيب : لك الأمر أنت أنت الله .

*
* *

واذا ما باين الدنيا إنسان وباينته إذ ينظر الى المال فيلقاه فانياً ، والى الجاه فيلقاه فانيًا والى الأمانى فيلقاها زائلة ، والى الآمال فيجدها باطلة ، والى الشهوات فيلقاها خادعة كاذبة ، والى المسرات فيجدها آفلة غاربة ، اذ ذاك يستغنى عن الجاه والمال ، ويشل فى نفسه حركة الآمال . وبين جاه يدول وأمل يزول لا يملأ فراغ النفس الا ذكرك أنت أنت الله .

*
* *

واذا ما وقعت العين على زهرة تتفتق فى الاكمام ، أو تلاقت العين بعين يملأها الحسن والابتسام ، واذا ما أعجب المعجبون بجمال الفجر المتنفس وتغريد الطير المتربص وعاود الصدر انشراحه وملأ القلب ارتياحه : اذ ذاك يشرق جبينك النورانى الجميل فنراك أنت أنت الله

*
* *

فبينما يمس النفس من مظاهر العظمة ومظاهر الوسعة ومظاهر الرحمة ومظاهر القدرة والقضاء ، ومظاهر الدوام والبقاء ومظاهر الجمال ، والجلال ، اعتاد الناس أن يصفوك بالعظيم ، والواسع ، والرحيم ، والقادر ، والدايم ، والجميل ، والجليل ، وأوتار القلوب تردد أنت أنت الله أنت أنت الله

الاسكندرية فى ١٨ من سبتمبر سنة ١٩٢٧

عام ١٩٣٠

اليوم !... تنفصل عن العمر لبنة من لبنات الأعمار، ويمتد إلى النفس مجرى من مجارى الحياة والأقدار ، فشيء يبيد وشيء يزيد

ولماذا أخاطبك أيها العام ، وبماذا أتحدث إليك ، ولقد كان لى مع سابقيك قول وخطاب . ولقد كان لى فى مثل هذا اليوم مع نفسى ، و بينى و بين مستهلات بعض السنين تذاكر وحساب. وهاءنذا أنتظر القول فلا يدنو إلى ، وأهم بالحديث فيلتوى على ، واليوم هو أحق الأيام لتحصى النفوس على وضح الحقيقة ما كسبت وما اكتسبت ، وما كان لها وما عليها ، وما فرطت فيه وما تطمح اليه . وان هذه الليلة لهى أولى الليالى التى يحسن فيها بالمرء أن ينفرد وقتاً ما بنفسه تحت جناح الهدآت والسكون ، ليستعرض شخصيته الدانية ويستبين آثار ما تدرج اليها من نتائج التجارب ، وما اندس فيها من معاملة الناس ، حتى إذا دنت منه شخصيته الصحيحة وبرزت اليه ، على ما هى عليه ، أخذ حينئذ فى أن يوجه اليها نظرات نفسه الخفية ، ونقدات بصيرته الفطرية النقية ، ليحاول تطهيرها من الذنب والدنس ، وتخليصها مما لحق

بها من سوء ، وإبرائها مما أصابها من ضعف ووهن . . . ثم يعمل على تزويدها بالنصح ، وتقويتها بالصبر والاحتمال ، وانعاشها بالايمان والأمل . بذلك كله تعد النفوس لترقى مما هى عليه الى ما ينبغى أن تصير اليه وهى شاخصة الى ما يتألق أمامها من مُثُل الخير النيرة . وبذلك كله نستطيع أن نقول لنفوسنا استقبلى العام الوليد ، وسيرى على بركة الله فى المجرى الجديد .

لكن . . . لكن مهما يكن الأمر من تجهيز النفس واعدادها فهل سنلقى فى عامنا اللاحق ، غير ما لقينا فى عامنا السابق ؟ ؟ .

أحسبنى لا أخطىء اذا قلت كلا . وأخالنى لا أتجاوز الصواب إذ أرى الحياة تتشابه فى مجاميع ما تسوق ، وفى كليات ما ترسل ، وفى مجردات ما تنتهى اليه من الأمور .

ماذا ؟ ؟ ؟ نواح مستنيرة بيضاء ، وأخرى مظلمة سوداء ، وأخرى تمتزج فيها الظلمة بالضياء .

ثم ماذا ؟ ؟ ألسنا نجد فى بعض هذه النواحى اليسر والفرح والرخاء ، وفى بعض آخر نجد العسر والكآبة والشقاء ، وفى آخر يكون العدل والجود والتفريط والافراط والكد والرخاء ؟

ثم ماذا ؟ ألسنا نجد فى ناحية من النواحى الفوز ، والسبق ،

والانتهاز والغلبة ، وفى أخرى الانكسار والاندحار ، وفى أخرى ما هو معروف من اليقين أو الارتياب ، أو ما هو مألوف من السكون أو الاضطراب ، أو ما هو معلوم من خسة ، ودناءة ، وخديعة ومكر ؛ وغفلة وحذر ؛ واساءة واحسان ، ونكران وعرفان ، وغير ذلك مما تنطوى أشباحه فى صور الخير والشر . وقد يصيب الناس رشاش من بعض هذا أو من كل هذا فى عامهم الجديد كما أصيبوا به فى عامهم المنصرم . وقد تتصل الحياة بكل هذه النواحى أو ببعض هذه النواحى فيصيبها شىء من ظلماتها أو أضوائها ! ! وكذلك الحال فى حياة الأمم والجماعات كما هو فى حياة الأفراد فقد تحقق لها آمال ، وقد تجد يسراً ، وقد تصادف عسراً .

مهما يكن الأمر فيما وجدنا وفيما سنجد فخير موقف نقفه عند استقبال عام ووداع آخر يجود بالنفس الأخير ، أن نرفع وجوهنا الى السماء ، عند دقة الساعة ، وفى مفترق العامين ، ونقول عند ما تتمثل صور الألم والتألمين ، رضاء وصبراً . . . وعند ما تتمثل الاساءة تقع من أنفسنا ومن غيرنا نرجو من الله ومن الناس مغفرة وعذراً . . . وعند ما تتمثل أمتنا فى

نهوضها وشبابنا فى آماله نسأل الله توفيقاً وخيراً . . . وعند ما تتمثل شؤوننا وشؤون الناس نرسل اليك اللهم حمداً وشكراً ، . ويطيب للنفس أن تتغنى بالثناء ، وللسان أن يردد : حمداً لله وشكراً . . . حمداً لله وشكراً . . .

القاهرة فى الأول من يناير سنة ١٩٣٠

فهـــــرس

١/٣٠٠٠/٤/١٩٣٠


Bibliotheca Alexandrina
0164737

